المورد

مـا يتـعلق بالعـــراق

من [كتاب الصعود](*) لزينوفون

ترجمـة

يعقوب افرام منصور

كان لداريوس و (پاريزاتس) نجـــلان ، اكبرهمـــا (ارتاكسركسس)(١) واصغرهما (كورش)(٢) . وعنـدما بلـغ داريوس حد الوهن ، واخذ يشعر بدنو اجله ، رغب ان يكون نجلاه دانيين منه . واتفق ان كان الاكبر هناك ، فكان عليـه ان يرسل في طلب (كورش) من المحافظة التي قد عينـه عليهـا حاكما ، كما كان قد عينه قائدا عاما على سائر القوات المحتشدة في سهل (كاستولس) ـ Castolus

عندئذ ، رحل (كورش) الى العاصمة برفقة (تيسافرنوس) Tissaphernes الذي كان (كورش) يعده صديقـــا ، مستصحبا معه ثلاثمئة جندي يوناني من مشاة الاسلحة الثقيـلة تحت امرة (زينياس) Xenias الذي من (پارهاسيا) . لكنه ، غب وفاة (داريوس) ، وعندما ارتقى (ارتاكسركسس) العرش ، قدح (تيسافرنوس) في كورش لدى شقيقه ، واتهمه بالتآمر عليه(٣) . وصدق النجل الاكبر الوشاية ، فاعتقـــل (كورش) بقصد القضاء عليه . لكن والدته انقذت حيـــاته بتوسلاتها ، واعادته الى محافظته . غير ان كورش ، بعد نجاته من الخطـر والفضـيحة ، اتخـذ الاحتياطات التي تضمن عدم وقوعه ثانية في قبضة اخيه ، بل حاول بديلا ، لو استطاع ، ان يغدو عاهلا مكان اخيه . كانت امه (پاريزاتس) الى جانبه ، لانها كانت محبة له اكثر من الملك الحاكم (ارتاكسركسس) . ولقد استغل نفوذه على اولئك الذين قصدوه من البلاط الى حد غدوا معه ، لما عادوا ، اكثر تعلقا به من الملك . كما اهتم بمواطني منطقته ليراهم في حال ملائمة لتجريد حملة ، وقـــد استمالهم اليه جيدا . وجمع عساكره الاغريق بكتمان متناه ، هادفا الى مداهمة الملك بصورة مباغتة بقدر الامكان .

بهذه الطريقة كون جيشه . لقد انفذ اوامره الى قواد الحاميات في مختلف المدن باكتـتـاب المحـــاربين من اقليـــم (پيلوپونيز) Peloponese باوفر واجود عدد ممكن ، بباعث ظاهره ان (تيسافرنوس) مبيت النية على القيام بعمل ما تجاه المدن . والحقيقة ان المدن (الايونية) كانت بالاصـل تابعة لتيسافرنوس لانها قد اعطيت اليه من قبل الملك ، امـا الان ، فقد قدت باجمعها تؤول الى (كورش) باستثناء ميليطوس (Miletus) (٤) . احس (تيسافرنوس) في (ميليطوس) ان ثمة مؤامرة تحاك ، نظير انحياز الولايات الاخرى الى (كورش) فاعدم حياة بعض المتآمرين ، والقصى آخرين . لقد استقبل (كورش) المنفيين ، والف جيشا ، وعزل (ميليطوس) بـــرا وبحرا ، وحاول ارجاع الزمرة المنفية . فاتخذ ذلك ذريعـــة اخرى لتجميع الجيش وارسل طلبه الى الملك ، باعتباره شقيقه راجيا تسليم المدن اليه بدلا من حكمها من قبل (تيسافرنوس) . اما والدته ، فقد لعبت دورها كذلك في هذا المجال . ونتيجة لذلك ، لم تحصل للعاهل فكرة عن المؤامرة التي كانت بيتت ضده ، بل ظن ان (كورش) كان ينفق امواله ويكون جيشـــا لمحاربة (تيسافرنوس) . وهكذا ، ولما كان من خصومة دائرة بين ذينك الاثنين ، يقلق الملك ، خصوصا وان (كورش) كـان يزوده بالخـراج من المـدن التي كـانت ســابقا في قبضـة (تيسافرنوس) .

وكانت هناك قـوة اخـرى ، في طـــور التـــكوين ، في (شرسونيز)(٥) المواجهة (ابيدوس)(٦) . وقد تم ذلك على هذا النحو : كان (كليرخوس) Clearchus الاسپرطي مقصيا . فواجهه (كورش) ، وحصل لديه انطباع قـوي الاثـــر عـــن

(*) اشتهر كتاب (الصعود) Anabasis للمؤرخ الاغريقي زينوفون باسم (الحملة على فـارس) او (الحمـلة الفارسية) .. وقد آثرنا الاكتفاء بما يتعلق بالعـــراق على الصعيد البلداني ، صافحين عما عقد على كردستان لعلمنا بان صلاح سعدالله قد ترجمه الى العربية ونشره في بغداد عام ١٩٧٣ بعنوان : مسيرة العشرة آلاف عبـــر كردستان والجدير بالتنويه ان الاستاذ يعقوب منصور قد اعتمد طبعة Penguin لسنة ١٩٦١ في ترجمته لهذا الاثر .

(١) Artaxerxes هو (ارتحشتا) الثاني المعروف بالمدبر .

(٢) بالانكليزية يكتب (Cyrus) وبلفظ (سايروس) ، وكذلك بالافرنسية .

(٣) اورد الاستاذ (طه باقر) في كتابه (مقدمة في تاريـــخ الحضارات القديمة) ـ الجزء الثاني ص ٤١١ و ٤١٢ مايلي : « وقد بذيه حكمه بمحاولة فاشلة لاخيه المسمى كورش الاصغر لاغتياله بطعنة خنجر في اثناء الاحتفـــال بالتتويج في المعبد الذي في (بزركادة) ولكن نجا كورش من العقاب بتوسلات امه وتضرعها » .

(٤) هي (ملاطيه) الحالية في تركيا .

(٥) The Chersonese يرجح انها جزر في بحر (ايجه) بالابيض المتوسط او عند مدخل مضيق الدردنيل .

(٦) مدينة (Abydus) على ساحل بحر (ايجه) .

امكانياته . وزوده بعشرة الاف جنيه(٧) . فانفق (كليرخوس) الدراهم في تاليف جيش . بعد ذلك ، وقد كانت (شيرسونيز) قاعدته ، شن الغارة على (الثراشيين) شمالي (هيليزبونت)(٨) وكان ذلك لمنفعة الاغريق ، ونتج ان مزيدا من المال تدفق عليه طوعا من قبل حواضر (هيليزبونت) لدعم عساكره . وهكذا بات لكورش جيش آخر لم يسترع الريبة لتاليفه على هذا النمط .

ثم كان هناك (اريستيوس) ـ الذي من (تساليا) صديق (كورش) ، الذي احاقت به صعوبات سياسية في موطنه من قبل الحزب المناوىء . لقد اقبل على (كورش) ، يرجو تزويده بالفين من الجنود المرتزقة ، وجعالة ثلاثة شهور لاجلهم ، قائلا ان ذلك يعينه في الغلبة على مناوئيه . فامده (كورش) باربعة الاف رجل ، وجعالة ستة شهور ، وطلب منه الا يعقد اي اتفاق مع مناهضيه قبل استشارته أولا . وهكذا بات له جيش آخر في (تساليا) دون اثارة شك .

كما انفذ ايعازا الى (بروكسينوس) البيوطي(٩) صاحبه ، بالتوجه شطره بمعية اكبر عدد مستطاع من الرجال ، اذ انه رغب في تجريد حملة على (البيزيديين) الذين كانوا يشيرون القلاقل في محافظته . واوعز الى (سوفاينتوس)(١٠) الذي من (ستيمفاليا) و (سقراط) الذي من (آشاي) ، وهما صديقاه كذلك ، يجلب ما يسعهما من الرجال ، لانه كان سيشن الحرب على (تيسافرنوس) ، وذلك دعما منه للمبعدين عن (ميليطوس) وقد نفذ (سوفاينتوس) و (سقراط) تعليماته .

ولما قرر ان قد آن اوان الزحف على العاصمة ، زعم أن غايته كانت تجريد منطقته من (البيزيديين)(١١) نهائيا ، وهو كانه يستهدفهم ، حشد المغازر الفارسية واليونانية من جيشه سوية . فعندئذ امر (كليرخوس) بالتقدم مع كامل قوته ، واوعز الى (اريستيوس) أن يتوصل الى وفاق مع اعدائه في الوطن ، ويعيد اليه العساكر التي معه . وامر (زينياس) الاركادي ، الذي انيطت به قيادة مرتزقته في المدن ، بالمجيء مع جميع قواته الفائضة عن العدد الواجب لحماية الحصون . كما استدعى اولئك الذين كانوا قد احاطوا (ميليطوس) وحث المنفيين على الالتحاق به في تجريدته ، واعدا اياهم انه ، اذا ختمت حملته بالظفر ، لن يقر له قرار حتى يعيدهم الى اوطانهم وقد ارتضوا ذلك مبتهجين لثقتهم به . فوفدوا الى (سرديس)(١٢) مع اسلحتهم .

بعد ذلك ، وصل (زينياس) الى (سرديس) مع رجاله من المدن ، وكانوا زهاء اربعة آلاف راجل من المشاة الثقيلة ، كما قدم (بروكسينوس) برفقة ما يقارب الفا وخمسمئة من مشاة الاسلحة الثقيلة ، وخمسمئة من مشاة الاسلحة الخفيفة . اما (سوفاينتوس) الستيمفالي ، فقد وصل بالف راجل من ذوي الاسلحة الثقيلة ، و (سقراط) الآشي جاء بحوالي خمسمئة راجل من حملة الاسلحة الثقيلة . وكان لدى (بازيون المجاري) ثلاثمئة راجل من الصنف الثقيل وثلاثمئة من مشاة الصنف الخفيف . كان سقراط وبازيون من ضمن القوة العاملة ضد (ميليطوس) .

ثم توجهت هذه القوى الى (كورش) في سرديس ، لكن تيسافرنوس عندما علم الامر ، ادرك ان القوة كانت من الضخامة بشكل لا يعقل اعدادها لمقاتلة (البيزيديين) ، فتوجه بالقصى السرعة الممكنة ، مع خمسمئة فارس ، الى العاهل . فلما وقف العاهل على جلية الامر ، اتخذ التدابير لمجابهة كورش .

لقد انطلق كورش ، مع من ذكرت ، من سرديس ، وقد استغرق ثلاثة ايام في قطع (٦٦) ميلا داخل (ليديا) حتى بلغ نهر (ميائدر)(١٣) الذي عرضه (٢٠٠) قدم ، وفوقه جسر عائم على سبعة قوارب . بعد اجتياز النهر ، وعسيرة (٢٤) ميلا خلال يوم واحد ، داخل (فريجيا) ، اشرف على مدينة (كولوساي) الواسعة الماهولة ، ذات الخيرات الغزيرة . فمكث هناك سبعة ايام ، ووصل (مينون) الذي من (تساليا) مع الف من المشاة الثقيلة ، وخمسمئة من المشاة الخفيفة(١٤) . من ثم ، وغب مسيرة (٦٠) ميلا خلال ثلاثة ايام ، بلغ (سيلانياي) وهي مدينة واسعة مقطونة واقعة في منطقة (فريجيا) . وكان لكورش ثمة قصر وحديقة شاسعة مليئة بالحيوانات البرية التي اعتاد اقتناصها ، وهو على ظهر جواده ، متى رغب في تدريب نفسه وخيوله . وكان نهر (ميائدر) يخترق وسط الحديقة ، وكانت ينابيعه تتدفق خارجة من القصر ، كما انه يجري مخترقا مدينة (سيلانياي) . وكان للعاهل العظيم ايضا قصر في (سيلانياي) في موقع منيع عند منابع نهر (مارسياس) تحت القلعة . وهذا النهر كذلك يخترق المدينة ويلتئم بنهر (ميائدر) . ان سعة مارسياس تبلغ (٢٥) قدما . وههنا مسرح الحكاية القائلة بان (ابولو)(١٥) سلخ جلد (مارسياس) عند اندحاره في الرهان بانه الغالب عليه في الحكمة ، وعلق اهابه في المغارة التي منها تتفجر المياه ، ولهذا دعي النهر (مارسياس) . والمقول بان (زوكسس) هو الذي شيد القصر وقلعة (سيلانياي) اثر عودته من اليونان مقهورا .

لقد اقام كورش في هذا الموضع ثلاثين يوما ، حيث وصل (كليرخوس) المنفي الاسبرطي مع الف من المشاة الثقيلة ، وثمانمئة جندي (ثراشي) من المشاة الخفيفة ، ومئتي نبّال (كريتي) . في نفس الحين ، لاح (سوسيس) السيراقوسي مع ثلاثمئة من المشاة الثقيلة و (سوفاينتوس) الاركادي بصحبة الف من المشاة الثقيلة . وهنا استعرض كورش اليونانيين في حديقته ، واحصاهم . فبلغ عددهم احد عشر الفا من مشاة الصنف الثقيل ، وحوالي الفين من مشاة الصنف الخفيف .

وبعد ان قطع (٣٠) ميلا من هنا خلال يومين ، ادرك المدينة الاهلة (بلطاي) ، فمكث فيها ثلاثة ايام ، احتفل خلالها (زينياس) الاركادي بالعيد الليكي(١٦) ، ونظم العاب الفتوة . وكانت الجوائز تيجانا ذهبية ، وقد شهد الالعاب كورش نفسه .

---

(٧) Daric عملة فاسية نسبة الى (دارا) ـ داريوس ـ الملك وقيمتها زهاء جنيه واحد .

(٨) الثراشيون الشعب القاطن (ثراشيا) وهي حاليا (بلغاريا) والهيليزبونت واقعة في مدخل الدردنيل The Hellespont

(٩) Proxenus the Boeotian

(١٠) Sophaenetus .

(١١) قوم منسوبون الى (بيزيديا) يقطنون شمالي جبال طوروس .

(١٢) الارجح أنها (مانيسا) الحالية شمال شرقي ازمير .

(١٣) هو النهر المسمى (يوك مندرس) حاليا ويصب في بحر ايجه .

(١٤) من الثساليين واليونانيين .

(١٥) هو الاه الجمال والرجولة والشعر والموسيقى عند الرومان وقد طغى على الاسم الاغريقي (فوبوس) .

(١٦) Lycaen Festival

وبعد مسيرة (٣٦) ميلا خلال يومين ، بلغ آخر مدينة آهلة قبل حدود (ميسيا) ، يطلق عليها (سوق الفخارين) ومن هناك ، بعد ان قطع (٦٠) ميلا في ثلاثة ايام ، وصل (سهل كايستر) وهي مدينة آهلة .

وظل هناك خمسة ايام . ولما كانت جمائل الجنود ، لما ينوف على ثلاثة شهور لم تسدد فان الجنود غالبا ما توجهوا نحو فسطاطه ، وطالبوه بالجمائل . وكان عليه أن يقصيهم عنه بالوعود المستمرة ، وغير خافٍ ان ذلك قد اقلقه ، اذ ان رجلا مثل كورش ما كان ليحتجز الجمائل لو توفرت لديه . عندئذ ، وفدت ابياكسا Epyaxa قرينة (سينيسيس) عاهل (كيليكيا) لزيارة كورش ، وقيل انها وهبته مبلغا وافرا من المال . ومهما يكن من امر ، فان كورش عند ذاك فقط ، وزع رواتب الجند المستحقة لاربعة شهور . كان برفقة ملكة (كيليكيا) حرس (كيليكيون) و (اسپنديون) . كما قيل انها رافقت وكورش سوية .

وبعد مسيرة (٣٠) ميلا من هنا ، خلال يومين ، ادرك المدينة الآهلة (ثيمبريون) . وكان هنا على جانب الطريق العين التي الحق بها اسم (ميداس) Midas ملك فريجيا ، اذ يقال ان (ميداس) قد اسر الشخص الخرافي(١٧) ــ الذي نصفه الاعلى بصورة بشري وشطره الاسفل بشكل ماعز ــ وذلك بمزج النبيذ مع الماء . ومن هنا سار قاطعا (٢٠) ميلا خلال يومين ، فوصل (تيريلون) وهي مدينة ماهولة . فاقام هناك ثلاثة ايام ، ويقال ان ملكة (كيليكيا) طلبت منه ان يريحها عسكره . فشاء ان يقيم عرضا من اجلها . واستعرض في السهل جيشه اليوناني والوطني (الفارسي) . لقد اوعز الى اليونانيين بالاصطفاف واتخاذ مواضعهم الحربية المعتادة ، على ان يهتم كل ضابط بنظام رجاله ، فاصطفوا للعرض اربعة اربعة ، وكان (مينون) ومحاربوه على الميمنة ، و (كليرخوس) ورجاله على الميسرة ، والقادة الآخرون في القلب . فتفقد كورش جيشه الفارسي اولا ، متقدمين بهيئة زمر وبتشكيلات ايضا ، ثم تفقد اليونانيين ، وهو بمركبة على طول جبهتهم ، والملكة في عربة مغطاة . وكانوا جميعا يرتدون الدروع البرونزية والقمصان الحمراء والدروع لوقاية الساقين ، وقد ازاحوا عنهم تروسهم . وحين اتى على نهاية العرض ، اوقف مركبته مقابل وسط الفيلق ، وانفذ ترجمانه (پيجرس) نحو القادة اليونانيين مع ايعاز بامر جنودهم بتجريد رماحهم للتاهب ولحركة الفيلق باكمله . فبلغ القادة الجنود اوامرهم ، ونفخ في النفير ، ورماحهم مجردة ، فتقدموا نحو الامام . فلما اسرع الجنود الخطى ، واطلقوا صراخهم ، وجدوا انهم في الحقيقة يهرولون نحو خيامهم . فاصاب الذعر المواطنين كافة ، وانهزمت ملكة (كيليكيا) بعربتها المغطاة ، وغادر الناس في السوق مصطباتهم ، بينما انطلق اليونانيون الى خيامهم ضاحكين . اما ملكة (كيليكيا) ، فقد اعتراها الذهول وهي تنظر العرض الرائع الذي قام به الجيش ونظامه ، ولقد اغتبط كورش بما لاحظ من وقوع الهلع الذي احدثه اليونانيون في صفوف الاهالي .

وبعد ان اجتاز مسافة (٦٠) ميلا في بحر ثلاثة ايام ، وصل (ايقونية)(١٨) وهي آخر مدينة في (فريجيا) . فمكث

(١٧) Satyr : شخص خرافي في اساطير الاغريق . وشبه الجملة المعترضة من (الذي) الى (ماعز) اضافة من المعرب .

(١٨) Iconium وهي (قونية) الحديثة .

هناك ثلاثة ايام ، ثم تابع التقدم خلال (ليكاونيا) ، فاستغرق ذلك خمسة ايام ، قطع اثناءها (٩٠) ميلا . ولما كانت هذه المنطقة معادية ، عهد الى اليونانيين بغزوها ، واعاد من هناك ملكة (كيليكيا) ، عن اقصر مسلك ، الى بلدها بحماية (مينون) نفسه ورجاله . اما كورش ومن معه ، فقد تقدموا خلال (كبدوكية) ، فوصل مدينة (دانا)(١٩) الواسعة الآهلة الغنية بعد ان قطع (٧٥) ميلا في اربعة ايام . وظل فيها ثلاثة ايام ، اعدم خلالها فارسيا يدعى (ميجافرنوس) الذي كان يحق له ارتداء الحلة الارجوانية السلطانية ، وشخصا آخر لما صولة من الفئة الحاكمة ، وذلك بتهمة التآمر .

من هنا ، حاولوا اجتياز الحدود نحو (كيليكيا) . وكان المجاز عبارة عن مسلك عجلة واحدة ، شديد الانحدار ، يتعذر على جيش عبوره لو تعرض لادنى مقاومة . ولقد تواتر ان (سينيسيس) كان يراقب ذلك الممر من نقطة سامقة في المرتفعات وعليه انتظر كورش يوما واحدا في السهل . وفي اليوم التالي ، ورد مخبر فافاد ان (سينيسيس) قد هجر المرتفعات بعد علمه ان عسكر (مينون) سبق ان اجتاز جبال (كيليكيا)(٢٠) ، ولانه سمع ان بعض السفن الحربية تحت امرة (تاموس) وبعض السفن الاسپرطية وغيرها من اسطول كورش بالذات ، كانت ماخرة حول الساحل من (ايونيا)(٢١) باتجاه (كيليكيا) .

على كل حال ، بلغ كورش فتن الجبال من غير مقاومة ، ولج مخيم الحامية الكيليكية . فانحدر من هناك الى سهل فسيح خلاب ، غزير المياه ، حافل بصنوف شتى من الشجر والاعناب ، وينتج كميات من السمسم والذره والحنطة والشعير . ان الجبال الشاهقة المحدقة به من كل صوب ، والممتدة من البحر الى البحر ، جعلت منها حوله موقعا منيعا . وبعد الانحدار من الجبال ، ادرك (طرسوس) بعد قطعه (٧٥) ميلا في بحر اربعة ايام خلال هذا السهل ، وهي مدينة واسعة وغنية في (كيليكيا) حيث قام قصر (سينيسيس) عاهل (كيليكيا) . وكان نهر (سيدنوس)(٢٢) الذي عرضه (٢٠٠) قدم ، يشطر المدينة الى شطرين . ان السكان ، باستثناء اصحاب الحوانيت ، هجروا المدينة ورافقوا (سينيسيس) الى موقع منيع محصن في الجبال . كما تخلف عنهم القاطنون عند ساحل البحر في (سولي)(٢٣) و (ايسس)(٢٤) .

لقد وصلت (ابياكسا) قرينة (سينيسيس) طرسوس قبل كورش بخمسة ايام . وفقدت جماعتان من عسكر (مينون) اثناء اجتياز الجبال نحو السهل . واستنادا الى بعض التقديرات يقال ان (الكيليكيين) قد ابادوا هاتين الجماعتين اثناء قيامهما

(١٩) Dana وهي (أظنه) الحالية في تركيا .

(٢٠) تدعى اليوم (كولاك بوغاز) ــ مجلة (سومر) العدد (٢) ص ٢٢٨ .

(٢١) Ionia : الجزء الغربي من آسيا الصغرى المطل على بحر ايجه والجزر التي فيه .

(٢٢) قد يكون هذا النهر هو سيحون او احد روافده لقربه جدا من طرسوس .

(٢٣) ارجح انها (ايشيل) أو (مرسين) حاليا .

(٢٤) Issus ــ المشهورة في التاريخ القديم بموقع المعركة التي وقعت عندها بين دارا الفارسي والاسكندر المقدوني .

بحملة سلب ، واستنادا الى غيرها ، لقد تركنا في المؤخرة ، فلم تتمكنا من العثور على بقية العسكر ، او اقتفاء الاثـــر الصحيح ، فتاهتنا وابيدتنا . ومهما كانت الحقيقة ، فالقـــوة كانت مئة جندي من المشاة الثقيلة . ولما وصلت البقية مـن عسكر (مينون) ، سلبوا مدينة (طرسوس) وقصرها الملـكي لحنقهم من جراء فقدان رفاقهم .

بعد دخول كورش المدينة ، انفذ في طلب (سينيسيس) للحضور لديه . فكان رد (سينيسيس) انه لم ينس بعـد في حوزة اي فرد اقوى من ذاتـه ، وظل مصرا على رفضـه زيـارة كورش في هذه المناسبة حتى تمكنت عقيلته من اقناعه بالذهاب ، وحتى ضمنت له السلامة . بعد ذلك ، جرى لقاء بين الاثنين ، ووهب (سينيسيس) كورش مبلغا كبيرا من المال من اجـل الجيش ، في حين منحه كورش اشياء تعتبر من هدايا الشرف في البلاط ـ جوادا مزودا بلجام ذهبي ، ورباطا وسوارا ذهبيين ومهندا ذهبيا احدب ، وحلة فارسية . وضمن له عدم اغتصاب ارضه ، وقطع له وعدا ان رعاياه سيستعيدون العبيد الذيـن اسروا حيثما صادفوهم .

مكث كورش والجيش هنا مدة عشرين يوما ، لان الجنود ابوا متابعة المسير . فقد ارتابوا بانهم انما يزحفون ضد العامل ، وقالوا بانهم لم يستخدموا من اجل ذلك . حاول (كليرخوس) ، اول الامر ، ارغام الجنود التابعين له للمضي قدما ، بيد انهـم رجموه بالحجارة ، ورجموا حيواناته ، ناقلة الامتعة والحقائب ، حالما حاولوا الشروع في الحركة . وكاد (كليرخوس) ان يموت رجما في هذه الحادثة ، لكنه بعد ان ادرك انه لن يفلح في قصده عنوة ، نادى باجتماع الجنود التابعين له . فانتصب باديء الامر امامهم دون حراك لفترة طويلة وهو ينتحب ، فتعجبوا لمرآه ، وظلوا صامتين . ثم خاطبهـم قائـلا : « زملائي الجنـــود ، لا تستغربوا اضطرابي من جراء ما يجري . لقد اضحى كورش صديقي ، وعندما كنت منفيا عن تربتي ، لم يعاملني باحترام كبير فحسب ، بل وهبني عشرة آلاف جنيه . وعندما حصل المال لدي ، لم احتفظ به جانبـا للذاتي ، ولم انفقـه على ملذاتي الخاصة ، بل صرفته عليكم . لقد حاربت (الثراشيين) اولا ، وانتم وانا وجهنا ضربة لصالح اليونان ، وذلك باكتساحهم من (شيرسونيز)(٢٥) حيث ارادوا اغتصاب الارض من مستوطنيها اليونانيين هناك . فلما دعاني كورش ، توجهت نحوه معكم ، بقصد ان ارد صنيعه ، اذا احتاج الى مساعدتي ، تعويضا لكل ما حباني من لطف . على اية حال ، ما دمتم غير راغبيـن في الزحف معه ، فينبغي علي تخير احد امرين : اما ان يتحتم علي ان اتبذكم واحافظ على صداقة كورش ، واما ان انقض وعدي له ، وانطلق معكم . فلا ادري الآن ان كنت اتصرف تصرفا سليما ام لا ، ومهما يكن ، فاني سافضلكم ، وساتحمل تبعة ما سيكون فلا يقال ابدا باني قد اقتدت اليونانيين الى بلد اجنبي ، ثم تخليت عنهم ، وفضلت مصادقة اهل البلاد ، كلا بما انكم لـن تطيعوني ، فانا تابعكم واتحمل المغبة ، ذلك لاني اعدكم بـــلدي واصدقائي وحلفائي ، حينما اكون بين ظهرانيكم ، اعتقـد ان الشرف سيلازمني حيثما كنت ، ولكن من دونكم لا اعتقد انـه سيكون في وسعي فعل الخير من اجل صديق ما او الحاق الاذى بعدو ما . لذا تستطيعون الوثوق اني ذاهب الى حيـث تذهبون » .

ذلك ما تفوه به . فصفق له الجنود فاطبة ـ تابعـــوه وغيرهم ايضا ـ وذلك عندما اصغوا الى عزوفه عن الزحف ضد العامل . فانحاز اليه ما يربـو على الفي مقـاتل من رجـال (زينياس) و (پازيون) ، آخذين اسلحتهم وحقائبهم وخيمـوا بجوار (كليرخوس) . لقد اقلق هذا كورش واحزنه ، فارسـل في طلب (كليرخوس) ، فلم يشأ (كليرخوس) الذهاب ، بـل بعث رسولا الى كورش من غير معرفة الجنود ، واخبـره ان يتمسك بشجاعته لان الامور ستجري بصورة افضل . وقال له ان يطلبه ثانية ، لكن (كليرخوس) رفض الذهاب ايضا . بعـد ذلك جمع الجنود من تابعيه والذين التحقوا به وكل من شاء الاستماع . وخطبهم قائلا : « زملائي الجنود : من الواضح ان نظرة كورش عنا قد تبدلت ، مثلمـا تبدلت فكرتنا عنه تماما. لاننا لم نعد جنوده (اذ كيف نكون كذلك ان نتخلف عن اللحاق به ؟) كمـا انه لم يعد مستخدمنا . على كل حال ، اني موقن انـه يعتقد باننا قد اسانا معاملته ، فعليه ـ حتى حينما يرسل في طلبي ـ لا ارغب في المضي اليه . ومرد ذلك ، بصورة رئيسية ، هـو الشعور بالخجل ، لادراكي باني قد خيبت امله في كل وسيلة ، لكنني اخشى ، كذلك ، ان يعتقلني ويعاقبني على معاملتـي الخاطئة التي يحسب صدورها مني نحوه . فرايي لذلك ، ان ليس هذا اوان الذهاب للنوم ، واهمال مصلحتنا الذاتية . بل حري بنا ان نتدبر ما ينبغي علينا عمله كخطوة ثانية . فطالما نحن نقيم هنا ، اعتقد انه يجب علينا اعتبار افضل طريقـــة نستطيع بها ان نجعل بقاءنا مامونا جهد الطاقة . فان كان قد تقرر الذهاب ، فعلينا ان نفكر في كيفية ذلك باقصى درجة من السلامة ، وفي كيفية تمكننا من الحصول على الميرة ، اذ بدونها لا يصلح قائد ولا جندي بسيط لاي شيء . ان الشخص الـذي يهمنا امره ، عظيم الفضل عند اولئك الذين يحبهم ، لكنـه عدو بالغ الخطورة عند مناوئيه ، والقوة التي في حوزته مـن مشاة وفرسان وسفن مرئية ومعلومة لدى كل فرد منـا . في الحقيقة ، اعتقد ان معسكرنا لا يبعد عنه كثيرا . لذا ، قـد آن الاوان ليقول الناس ما هو افضل شـيء يجب عمـله في اعتقادهم » .

لقد توقف عن النطق بعد قوله ذلك ، فنهض بعضهـم ليقولوا ما يدور في خلدهم ، بيد ان آخرين ممن القى عليهم (كليرخوس) ذات المسالة ، اوضحوا الصعوبة الجسيمة في مكوثهم هناك ، او الرجوع من غير موافقة كورش . وتكلم احـد هؤلاء ، زاعما انه مشتاق الى العودة الى الوطن (اليونان) باسرع ما يمكن ، وطلب ان ينتخبوا قادة آخرين في الحال ، اذا عارض (كليرخوس) قيادتهم اثناء الرجوع وان يبتاعـوا الميرة (وكانت السوق في معسكر الجيش الوطني)(٢٦) ، وان يعززوا امتعتهم ، ويتحتم عليهم اللجوء الى كورش برجـاء تزويدهم بالسفن ليتمكنوا من الرحيل بحرا ، فان احجم عن تزويد السفن ، وجب عليهم ان يسالوه تزويد الدليل لمرافقتهم خلال تخلظهم في قطر صديق . فان لم يشأ حتى تزويد هـذا المرشد ، وجب عليهم التجمع تاهبا للمعركة بالسرعة المستطاعة وارسال مفرزة لتحتل المرتفعات للحيلولة دون وصول كورش هناك اولا او (الكيليكيين) الذين منهم اغتصب اليونانيون ـ وما زالوا كذلك ـ عددا جما من الرجال ، ومبالغ طائلة من المال .

---

(٢٥) Chersonese ويجوز أن تلفظ (خيرسونيز) ايضا . ويغلب انها الآن ضمن حدود (بلغاريا) او عند مدخل الدردنيل .

(٢٦) يقصد الجيش الفارسي .

بعد ان تكلم هذا على ذاك النحو القصير (كليرخوس) على القول : « لا يتوهم احدكم ابدا باني قائدكم في حملة من هذا الطراز . استطيع رؤية عدة عوامل في الموقف من شأنها ان تجعل ذلك مستحيلا علي . لكنكم تاكدوا اني ساساند مخلصا ذلك الشخص الذي تنتخبون ليحل محلي ، لتعلموا ان في مقدوري الاذعان للنظام على احسن وجه يستطيعه غيري بالضبط » .

ثم نهض رجل آخر ، وبين خطل رأي المتكلم الذي اوصاهم بمطالبة كورش بتزويد المراكب ، كان كورش هو الذي يعيد جيشه القهقرى ، وقال : « ما اسخف ان نطلب الدليل من نفس الرجل الذي انهار مشروعه بسببنا ! فان كنا حقيقة سنضع ثقتنا في الدليل الذي يزودنا به كورش ، فينبغي علينا ، كذلك ، ان نطالب كورش باحتلال المرتفعات من اجلنا . اني بالتوكيد ساحجم عن ركوب السفن التي يجهزها (كورش) ، فهو قد يغرقنا بزوارقه ، واني اخشى اتباع الدليل الذي يعطينا ، فاربما يقتادنا الى موضع ، لا سبيل للنجاة منه . فان كان لي ان افعل راجعا ضد رغبة كورش ، تمنيت الاياب دون علمه ـ وهذا ليس بالمستطاع . لكن الحقيقة هي ان كل هذا هراء . رايي انه يتحتم ذهاب فئة ملائمة من الرجال مع (كليرخوس) الى كورش للوقوف على ما ينوي استخدامنا من اجله . فان كان المشروع ، على وجه التقريب ، نظير المشاريع التي استخدم فيها جنود المرتزقة ، وجب علينا كذلك المضي معه وان نكون بواسل كاولئك الذين عملوا بمعيته في الداخل سابقا . اما اذا لاح المشروع اوسع نطاقا مما سلف ، وان اخطارا وصعوبات اكثر ستكتنفه ، فيلزم ان يساووه ، على اساس من انفاق الطرفين ، اما ان يقودنا قدما ، واما ان يدعنا نغادر بسلام . بهذا النحو ، اذا رافقناه ، فسنمضي معه بعلاقات اطيب وبرغبة اعظم ، وان غادرناه ، فعلنا ذلك بشكل مامون العاقبة . على مبعوثينا ان يعودوا لاعلامنا بجوابه ، وسنتخذ التدابير على ضوء ما نسمع منهم » .

هذا هو النهج الذي عزموا عليه . فانتخبوا مندوبين عنهم ، واوفدوهم مع (كليرخوس) ليعرضوا على كورش المسائل التي اتفق عليها الجيش . فرد كورش انه قد انبيء ، بان خصمه (ابروكوماس) بات عند الفرات وعلى مسيرة التي عشر يوما من هذا الموضع . وقال انما اراد الزحف عليه ، وانه لو كان هناك ، لانتقم منه . اما اذا شاء الفرار ، فعندئذ قال « يتحتم علينا فورا ان نرسم الخطط لمجابهة الوضع » .

فعندما اصغى المفوضون الى ذلك ، نقلوه الى الجنود الذين بينما ارتابوا في انه كان يقودهم ضد العاهل ، قرروا ـ مع ذلك ـ الذهاب معه . الا انهم طلبوا مزيدا من الجعائل ، فوعدهم كورش جميعا نصف ما استلموا سابقا ، اي جنيها ونصف جنيه عن الشهر لكل جندي بدلا من جنيه واحد . اما فيما يتعلق بالقيادهم ضد العاهل ، فلم يخبره اي واحد منهم بذلك ، حتى في هذه المناسبة ، اطلما ليس جهرا .

من ثم ، بلغ نهر (بساروس)(٢٧) بعد قطعه (٣٠) ميلا في يومين ، وكان عرض النهر (٣٠٠) قدم . وبعد ان سار (١٥) ميلا في يوم واحد ، وصل النهر المدعو (بيراموس)(٢٨) الذي عرضه (٦٠٠) قدم ، فبلغ (ايسس) . الاهلة الزاهرة بعد مسيرة (٤٥) ميلا خلال يومين . انها اقصى مدينة في (كيليكيا) وتشرف على البحر .

هنا ، مكث كورش ثلاثة ايام ، فانضمت اليه السفن القادمة من (البيلوبونيز) والمؤلفة من خمس وثلاثين قطعة منها تحت امرة امير البحر (بيثاغوراس) الاسبرطي ، وقد قادها من (افسس) تامبوس الفرعوني الذي كان آمرا على خمس وعشرين سفينة اخرى عائدة لكورش ، بها كان قد عزل (ملاطية) حينما كانت منحازه الى (تيسافرنوس) . كما كان على ظهر السفن (خريسوفوس) الاسبرطي الذي طلبه كورش ، فقدم بصحبة سبعمئة راجل من الصنف الثقيل ، قادهم بنفسه ضمن جيش كورش . وقد رست السفن مقابل فسطاط كورش وهنا ايضا ، تمرد اربعمئة راجل من الصنف الثقيل ومن مرتزقة (ابروكوماس) والتحقوا بكورش للزحف على العاهل .

فانطلق من هنا نحو ابواب (كيليكيا) وسورية ، وادركها بعد قطعه (١٥) ميلا في يوم واحد . وكان هنالك حصنان : داخلي يقي كيليكيا وكان تحت سيطرة (سينيسيس) وحامية من الكيليكيين ، وخارجي بصون سورية ، قيل انه بيد حامية من جنود العاهل . كان نهر (كارسوس)(٢٩) ، الذي عرضه (١٠٠) قدم يجري بين الحصنين ، والفسحة بينهما (٦٠٠) ياردة . لذا كان شق الطريق بينهما لا يصح ذكره نظرا لضيق الممر وامتداد الاسوار حتى البحر ، تعلوها اجرف قائمة . وكان ثمة ابواب في كل من الحصنين . وقد حدت بكورش رغبة الاحاطة بهذا الموقع ، ان يستدعي اسطوله ، اذ كانت الخطة انزال المشاة الثقيلة على جانبي الابواب ، ولشق الطريق عبر صفوف العدو في حال حراسته الابواب السورية ، كما توقع كورش ان يفعل (ابروكوماس) لان القوة التي كانت معه لا يستهان بها . على كل حال ، لم يقدم (ابروكوماس) على ذلك ، لكنه غادر (فينيقيا) ، وتقدم للالتحاق بالملك مع جيش ، قيل انه كان مؤلفا من ثلاثمئة الف مقاتل ، وذلك حالما بلغه وجود كورش في كيليكيا .

وبعد ان سار كورش يوما واحدا من هذا الموضع ، مجتازا (١٥) ميلا ، اشرف على (مرياندروس)(٣٠) وهي مدينة تطل على البحر ، يقطنها الفينيقيون . كان هذا المكان مركزا تجاريا ، وكانت سفن تجارية عديدة راسية هناك . فاقام هنا سبعة ايام ، صعد اثناءها (زينياس) الاركادي و (باتريون) المجاري ظهر سفينة واحدة ، ضمت المئتين مقتناهما ، واقلعا . لقد ظن اغلب الناس ان الحسد كان دافع ذلك لان كورش سمح لكليرخوس ان يضع تحت امرته جنودهما الذين انضموا اليه عندما عرضت لهم فكرة الرجوع الى اليونان وعدم الزحف على العاهل . بعد اختفائهما اشيع ان كورش يتعقبهما بالزوارق ، وان البعض ، وقد نعتوهما بالجبن املوا انهما سيمسكان ، بينما شعر آخرون بالحزن عليهما لو قبض عليهما . بيد ان كورش جمع قادته ، وقال : « لقد تخلى عنا (زينياس) و (باتريون) ، لكنهما لن يكونا قوت الادراك . اني اعرف الطريق التي سلكا ، ولم يفلتا مني مازلت امتلك الزوارق التي في مقدورها ان تبلغ مراكبهما . لكني اقسما بالسماء ، لن اتعقبهما بالتاكيد ، لئلا يقول عني احد باني انتفع بالرجل مادام في خدمتي ، لكني اعتقله واسيء

(٢٧) Psarus يرجح انه نهر (سيحان) حاليا .
(٢٨) Pyramus يرجح انه نهر (جيحان) حاليا
(٢٩) Carsus يرجح انه نهر (الاسود) حاليا .
(٣٠) Myriandrus

معاملته واستحوذ على ما يقتني ، عندما يشاء المبارحة . كلا ، فيلهيبا مع العلم انهما قد سلكا معنا اسوأ مما سلكنا معهما . الا اني قد وضعت الحجر على اولادهما ونســـاقهما تحت الحراسة في (ترالس)(٣١) لكنهما لن يحرماهم . كلا ، بـــل سيستعيدانهم مقابل ما اسديانني من العمل الصالح في الماضي »

ذلك ما قال . اما الافريق ، فحتى اولئك الذين لـــم يكونوا في غاية الحماس للتظلل نحو الداخل ، اضحوا اكثر اغتباطا ورغبة في الانطلاق معه ، عندما سمعوا كيف تصرف كورش تصرفا حسنا .

بعدئذ ، تابع المسير قاطعا (٦٠) ميلا خلال اربعة ايـام ، فوصل (خالوس)(٣٢) وهو النهر الذي سمته (١٠٠) قـدم عرضا ، وكان مليئا بالاسماك الاليفة التي عدها السوريون آلهة لا يجيزون احدا باياذائها (وهم يعتقدون ذات الاعتقـاد في طيور الحمام) . ان القرى ، حيث عسكروا ، تؤول ملكيتها الى (پاريزاتس) وقد وهبتها لتدر نفقة لجيبها الخاص .

وبعد اجتياز (٩٠) ميلا في خمسة ايام ، اشرف على منبع نهر (داردیس)(٣٣) الذي عرضه (١٠٠) قـدم . هنـا قام قصر (بلسيس) ـ حاكم سورية ـ وحديقة مترامية جدا وجميلة ، ضمت جميع النباتات القابلة للنماء . لـكن كورش عاث في الارض ، واحرق القصر .

ثم واصل الزحف من هنا ، قاطعا (٤٥) ميلا خلال ثلاثة ايام ، فبلغ نهر (الفرات) الذي كان عرضه (٨٠٠) ياردة ، وهنالك قـامت على ضـفتيه مدينـة عظيمة ثرية تدعـى (ثاپساكوس)(٣٤) حيث مكث خمسة ايام .

عند هذا الموضع ، ارسل كورش في طلب القادة اليونانيين وابلغهم بزحفه ضد العامل العظيم نحو مدينـة (بابـل) . وطلب منهم اعلام الجنود بذلك واقناعهم بالمضي معه . فالتـام القادة وبلغوا بلاغ كورش . لكن الجنود كانوا ســاخطين ، وقالوا ان القادة على علم سابق منذ البداية ، لكنهم حجبوا ذلك ، فابوا الذهاب ابعد من ذلك ، الا اذا منحوا مزيدا من المال . كما اعطي قبلهم الذين رافقوا كورش الى العاصمـة حيث والده ، علما ان المسالة اذ ذاك لم تكن مسالة قتال ، بل مجرد دعوة (كورش) من قبل والده الى البلاط .

فاخير القادة كورش بكل ذلك ، فوعدهم باعطاء كل فرد منهم عشرين جنيها(٣٥) من الفضة حين وصوله الى بابل مـع راتب كامل حتى العودة باليونانيين الى (آيونيا) . لقـــد استمال اغلب الجيش اليوناني بهذه الشـــروط ، لـــكن (مينون) قبل التاكد من عزم باقي الجيش على ما سيقدم عليه ، وفيما اذا كان سيتبع كورش ام لا ، دعا الى اجتمـاع المقاتلين التابعين له قصيا عن البقية ، وخاطبهم قائلا : « ايها الجنود : ان تتقبلوا نصيحتي ، فانكم ـ دونما خطر او صعوبة مطلقا ـ ستحصلون على مزيد من تقدير كورش دون ســائر البقية . وهذا ما اوصى به : ان كورش ، في هذه اللحظة ، يرجو اليونانيين ان يلتحقوا به ضد العامل . فالقول : يتحتم عليكم اجتياز الفرات قبل ان يبدو اكيدا نوع الجواب الـذي سيوجهه اليونانيون الآخرون الى كورش . اذ عندئذ ، ان يحبذوا مرافقته ، فانتم ـ بصفتكم اول الذين سيجتازون النهر ـ سيكون لكم الفضل في اتخاذ القرار ، وسيغدو كورش ممتنا لكم لانكم اشد مناصريه تحمســـا ، وسيظهر شكرانه . صدقوني انه يعلم كيف يفه لذلك . وان يصوت الآخرون ضد الفكرة ، فسنتقبل راجعين ، لكن نظرته اليكم ستكون انـــكم وحدكم الذين تطيعون اوامره ، والافضل من يتعهدهم في تاديـة واجبات الحراسة وترقية في الرتب ، وكل ما رغبتم في ما عـــدا ذلك ، فانا واثق من نوالكم اياه عن سبيل صداقة كورش » .

بعد سماعهم هذا ، تقبلوا مشورته ، وعبروا الفرات قبل ان يبعث الآخرون بردهم . فاغتبط كورش باجتيازهم ، وانفـذ (جلاوس) الى عسكر (مينون) مع البلاغ التالي : « ايهـا الجنود ، اني لمسرور بكم الآن . لكني ساضمن مسرتكم بي كذلك ، والا فلست ادعى كورش » .

ان الجنود من جانبهم ، وهم بآمالهم العظام ، ابتهلوا من اجل فوزه ، وقيل انه قد ارسل هدايا سخية الى (مينون) . بعدئذ ، عبر هو النهر ولحق به الجيش الباقي باكمله . واتـاه العبور ، لم يبتل احدهم من ماء النهر فوق مستوى الاكـتاف . وقال سكان (ثاپساكوس) انها المرة الوحيدة التي غدا فيها من الميسور عبور النهر خوضا لتعذر ذلك بدون زوارق ، وقـد احرق (ابروكوماس) الزوارق في هذه المناسبة ليعيق كورش عن العبور . بدا مؤكدا انه قد كان ثمة شيء يفوق المعتاد بهـذا الشان ، وان النهر ، من غير شك ، قد يسر العبور لكورش ، مادام قد قدر له ان يغدو ملكا .

من هنا ، واصلوا التظلل في سورية ، فقطعوا (١٥٠) ميلا خلال تسعة ايام ، حتى ادركوا نهر (اراكسس)(٣٦) ، حيث القرى العديدة الزاخرة بالظلال والنبيذ . فمكثوا ثلاثة ايـام وتزودوا اثناءها بالقوت .

من هنا ، والفرات عن يمينهم ، واصل (كورش) التقـدم داخل شبعة الجزيرة العربية . فتظللوا عبر الصحراء ، قاطعين (١٠٥) اميال خلال خمسة ايام . في هذا الشطر من العالم ، كانت البسيطة سهلا على مستوى واحد كالدماء . كان الشيح وفيرا ، وكان القصب وجميع الشجيرات النامية هنـاك ذات

---

(٣١) Tralles هي مدينة آيدين (Aydin) الحالية في تركيـــا .

(٣٢) Chalus يرجع الرحالة المستشرق الجيـــكي (ألويز موسيل) مؤلف كتاب (الفرات الاوسط) ان هذا النهر هو عفرين الحالي .

(٣٣) يرجع المستشرق (موسيل) ان Dardes نهـــر (الذهب) شرقي حلبه . يبعد عن (ثاپساكوس) مسيرة ثلاثة ايام .

(٣٤) Thapsacus تعني المخاضـــة وهي التي وردت في (التوراة) باسم (تفـاح) التي فتحها الملك سليمان ، ويعينها (موسيل) الى الشمال من مدينة (بالس) التي هي قنسرين . انظر ص ٢٢٩ من المجلد (٢٠) من مجلة (سومر) .

(٣٥) Five Minae والمفرد (Mina) عملة فضية تعادل زهاء اربعة جنيهات.

(٣٦) Araxes هو نهر الخابور ويدعى كذلك (خابوراس) Chaboras . والملاحظ ان (زينوفون) لم يذكر نهر (البلخ) بعد اجتياز الفرات حيث مدينة الرقـة التي كانت تعرف آنذاك او في عهد الاسكندر باسم نيسيفوريوم (Nicephoriom) ويجوز ان هذا النهر كان جافا آنذاك .

رائحة ذكية كالعطر(٣٧) . لم تكن ثمة اشجار ، بل كانت هنالك حياة حيوانية منوعة . كانت الحمر الوحشية بوفرة ، كما كان النعام والحبارى والغزلان بكثرة . لقد تصيد الفرسان كل هذه الحيوانات مرات عديدة . اما الحمر الوحشية ، فكانت ـ عند ملاحقتها من قبل احد ـ تعدو قدما ثم تقف ساكنة ، فقد كانت في عدوها اسرع بكثير من الخيول ، وعند دنو الخيول منها ثانية ، تفعل ذات الشيء ، وكان من المتعذر امساكها الا بوساطة وضع الفرسان على مسافات متتابعة والقنص على مراحل . وكان لحم الحمر التي اقتنصت اشبه بلحم الظباء ، الا انه اكثر طراوة . لم يفلح فرد في اقتناص النعامة . والحقيقة ان الفرسان الذين حاولوا ذلك ، سرعان ما عدلوا عن اقتفائها ، اذ اوجب عليهم تظلل مسافات سحيقة جدا عند هروبها منهم . كانت تستخدم قدميها للجري ، وتستعين باجنحتها كما لو كانت تستعمل الشراع ، لكن المرء يستطيع اصطياد الحبارى اذا حملها على التحليق بسرعة ، لانها لا تطير الا قليلا حتى يعتريها الاجهاد سريعا نظير الحجل . وكان لحمها لذيذا .

بعد التظلل داخل هذه البلاد ، بلغوا نهر (ماسكاس)(٣٨) الذي عرضه (١٠٠) قدم . كانت هنا مدينة مهجورة ، واسعة الرقعة ، تدعى (كورسوت)(٣٩) ، وكان نهر (ماسكاس) يجري متعرجا حولها ، فبقوا هناك ثلاثة ايام ، وتزودوا بالطعام . بعدها ، ساروا ثلاثة عشر يوما ، فطووا اثناءها (٢٧٠) ميلا عبر الصحراء ، والفرات مازال عن يمينهم ، حتى وصولهم الموضع الذي يطلق عليه (الابواب)(٤٠) . لقد مات جوعا عدد وافر من حيوانات نقل الامتعة لانعدام الحشائش واي نبت نام . كانت الارض جرداء تماما . واعتاد السكان اقتلاع الاحجار عند ساحل النهر لصنع احجار الرحى لطحن الحبوب ، فياخذونها الى بابل بقصد بيعها ، وتعيشوا على القوت الذي ابتاعوا بالايراد .

لقد نضبت الظلال التي حملها العسكر اثناء هذه المسيرة ، ولم يكن في الامكان ابتياع اية كمية الا في سوق (ليديا) بين جند كورش الفرس ، حيث كان من الميسور حصول الفرد على زهاء نصف كيلوغرام(٤١) من دقيق الحنطة او من الشعير المقشور مقابل اربعين فلسا تقريبا(٤٢) . لذلك عاش الجنود على اللحم فحسب .

وقد جعل كورش بعض هذه المسيرات طويلة جدا وذلك في حالة احتياج الى بلوغ الماء والعليق . وفي احدى المرات ، كان الطريق ضيقا موحلا ، يصعب على قافلة العربات عبوره ، عندما توقف كورش مع ابيل وافنى مرافقيه ، واوعز الى (جلاوس)(٤٣) و (بيجرس)(٤٤) باتخاذ مفرزة من الجيش الفارسي للاسهام في انتشال العربات من الوحل ، وعندما حسب انهم جادون في ذلك ببطء ، بدا عليه السخط ، واوعز الى ابرز الفارسيين في حاشيته ، ليسهموا في انهاض العربات . اذ ذاك حقا ، راي الفرد شيئا من نظام . فحيثما اتفق ان كانوا واقفين ، القوا عنهم اردیتهم الارجوانية ، وخفوا نحو الامام كانهم في سباق ـ منحدرين من تل شديد الانحدار ايضا ، ومرتدين القمصان الفالية والسراويل المطرزة . كما كانت لبعضهم سلاسل حول اعناقهم واسورة حول معاصمهم . لكنهم مع كل ما عليهم ، قفزوا نحو الطين راسا ، وازاحو العربات نحو اليابسة باسرع مما لاح ممكنا لاي فرد .

كان جليا ، بصورة عامة ، ان كورش كان مسرعا طول الطريق ، دون توقف ، الا حينما حط من اجل التجهيزات او ضرورة اخرى . لقد حسب انه كلما عجل الوصول ، كان العامل اقل تاهبا اذا اشتبك معه ، وكلما ابطا السير ، تضاعف الجيش الذي كان في وسع العامل تجميعه . في الحقيقة ، ان المراقب اللبيب لامبراطورية العامل ، سيتوصل الى هذا التقدير : انها قوية بالنسبة الى اتساع رقعتها وعدد سكانها ، لكنها واهنة فيما يخص مواصلاتها الطويلة ، وتفرق قواها ، وذلك اذا استطاع احد الهجوم بسرعة .

على الجانب الآخر من نهر الفرات ، مقابل الصحراء التي كانوا يسلكون ، كانت ثمة مدينة واسعة غنية ، تدعى (خارماند)(٤٥) ، فابتاع الجنود ما احتاجوا اليه من هنا ، وعبروا النهر فوق اطواف بالنحو الآتي : لقد حشوا الجلود ، التي استعملوها اغطية لخيامهم ، بالحشيش اليابس ، ثم ضموا بعضها الى بعض ، ورتقوها كي لا يصل الماء الى الحشيش

---

(٣٧) يؤيد هذا حتى الآن الشيخ محمد رضا الشبيبي في بحثه (رحلة في بادية السماوة) المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ـ مجلد ١١ .

(٣٨) للاستزادة حول Mascas راجع ص ٢٣٢ من مجلة (سومر) ع ٢٠ .

(٣٩) ارجح ان Corsote في موضع قريب من مدينة (البو كمال) الحالية في سورية . ويرجح المستشرق الجيكي (موسيل) انها خرائب (الناوي) . واغلب الظن انه يعني (الطاوي) التي لم اعثر عليها في الخرائط للاستزادة راجع ص ٢٣١ من مجلة (سومر) ع ٢٠ .

(٤٠) اورد الاستاذ طه باقر في ص (٤١٣) من كتابه (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ الجزء الثاني) ما يلي : « ويصل الجيش اخيرا الى موقع شمالي الرمادي بنحو خمسين ميلا ذكره زينوفون باسم (الابواب) . ولا يعلم موضع هذا الممر ... » وخريطة الكتاب تدعوه (Pylae) ويعينها (موسيل) عند (تل الاسود) ويحدد المسافة بينها وبين (كورسوت) بـ (٢٦٥) كيلومترا .

(٤١) لقد توصلت الى هذا المقدار بدليل نص في الكتاب يشرح ذلك ، قائلا
(The Capithe is Equal to Three Pints)
اي ان الكابيث يعادل ٣ باينتات . وبما ان (الباينت) مكيال سعته زهاء نصف لترة ، فقدرت ان (الكابيث) الواحد من الدقيق يعادل وزنا زهاء نصف كيلوغرام .

(٤٢) يذكر النص الانكليزي (Four Sigli) . مفرد هذه العملة (سيجلوس) Siglus تعادل ٧ (اوبولات) ونصف الاوبول (Obol) وهو عملة تساوي (٦) فلوس تقريبا . وارجح ان (الشاقل) قريب من هذه الكلمة مبنى ومعنى .

(٤٣) احد مترجمي كورش .

(٤٤) ارجح انها في موضع قريب من هيت او حديثة الحاليتين على الضفة اليسرى من الفرات . وبعينها المستشرق الجيكي (موسيل) في جنوب غربي (تل الاسود) حاليا. ولقد جاء ذكر هذه المدينة في ص ٢٣٢ و ٢٣٣ من ع ٢٠ من مجلة (سومر) بهذا الشكل (شارمانده) . وقد تكون ـ في ترجيحي ـ في موضع قريب من الرمادي الحالية .

الجاف ، فاجتازوا النهر عليها ، وحصلوا على المرة والفحمة المستخرجة من التمر و (نوع من الفلل)(٤٥)) المبلولين في تلك الديار بكثرة .

في هذا الموضع ، حدث شجار حول امر ما بين عسكر (مينون) وعسكر (كليرخوس) . ولما حكم (كليرخوس) ان جندي (مينون) كان المخطيء ، امر بضربه . وعند اوبة ذلك الجندي الى جماعته ، انباهم بذلك ، فباتوا بعد سماعهم الحكاية ، في اقصى حال من السخط والصرامة تجاه (كليرخوس) . وفي ذات اليوم ، عند زيارة الموضع الذي عبروا عنده النهر ، ولتيش السوق التي كانت هناك، كان (كليرخوس) يعود راكبا الى خيمته برفقة بعض الخدم عن طريق معسكر (مينون) . وكان كورش لايزال يتابع المسير هناك ، ولم يدرك الموضع بعد . ولما كان فرد من جيش (مينون) يقطع الخشب ، ولمح (كليرخوس) راكبا يخترق المعسكر ، رماه بالفاس ، لكنه اخطأ الهدف ، فرماه جندي آخر بحجر ، وتبعه آخر ثم آخرون عديدون ، فسادت جلبة شاملة . فاعتصم (كليرخوس) بجنوده ، ونادى حالا باتخاذ الاجراء . لقد امر افراد المشاة الثقيلة بملازمة موضعهم ، ودروعهم على ركبهم ، بينما هو ذاته تحرك باتجاه رجال (مينون) مع رجاله (التراشيين) ومع فرسانه الذين يملك منهم في معسكره اكثر من اربعين رجلا ، اغلبهم من التراشيين . ونجم عن ذلك ، حلول الذعر بمينون ذاته وبرجاله، فهرعوا الى اسلحتهم ، ولو ان بعضهم قتلوا حيث كانوا ، عاجزين عن العمل لمعالجة الوضع . في هذه اللحظة بالذات ، قدم (بروكسينوس) في المؤخرة ، يقود ثلة من المشاة الثقيلة . لذلك جلب رجاله فورا نحو موقع بين الفريقين ، والتمس (كليرخوس) بالكف عن فعله . بيد ان كليرخوس تميز غيظا اذ تكلم (بروكسينوس) دونما تاسف على ما تعرض له كليرخوس وقد اوشك فعلا على الموت رجما ، فقال له الا يعترض السبيل . عندئذ ، قدم كورش ، والفى ما يدور ، فتناول رماحه فورا ، وركب منطلقا نحو وسط الاغريق برفقة حراسه الحاضرين ، وخاطبهم قائلا :

« ايا كليرخوس وبروكسينوس ، وانتم جميع اليونانيين الآخرين هنا : انكم لا تعلمون ما انتم فاعلون . لئن تشرعوا في الاقتتال فيما بينكم ، فتاكدوا باني مقضي علي للحال ، وعليكم ايضا بعد امد قصير . فان ساءت الاحوال بيننا ، فجميع هؤلاء الوطنيين (الفرس) الذين تشاهدون سيصبحون اشد خطرا علينا من اولئك الذين بجانب العاهل » .

فعاد (كليرخوس) الى صوابه اثر سماعه ذلك . واسترخى الطرفان ، واعادا الاسلحة الى مواضعها .

وبينا هم منطلقون في السير من هنا ، صادفوا روث وآثار سنابك الخيل ، فقدر احدهم ان فرسانا يعدون زهاء الالفين ، قد تركوا تلك الآثار ، وانهم قد مضوا قدما لاحراق كل الطيق وكل ما عداه مما قد يستفاد منه .

وكان رجل فارسي ، يدعى (اورونتاس) تنتسب عائلته الى العاهل ـ حائزا على ابرز صيت عسكري بين الفرس ، ويتآمر على (كورش) . والحقيقة انه كان في حرب معه سابقا ، لكنهما توصلا الى تسوية . اما الآن ، فقال لكورش انه اذا زوده بالف فارس ، فاما سيكمن فيبيد الفرسان الذين داسوا التربة امامهم ، واما سياخذ فئة منهم اسرى ، وبذا يضع حدا لاتلاف الارض التي يسلكون ، ويعيقهم عن الحصول على فرصة لاخبار العاهل انهم قد شاهدوا جيش كورش .

وعندما استوعب كورش الخطة ، خالها جيدة ، واعلم (اورونتاس) باخذ مفرزة من كل قائد من قواده . فلما ايقن (اورونتاس) من حصوله على الفرسان ، حرد خطابا الى العاهل يعلمه بالتوجه اليه مع اكثر ما يستطيع اصطحابه من الفرسان ، ويساله اعلام الفرسان الخاصين به ان يستقبلوه كصديق . كما ذكره ، في الخطاب ، بصداقته السالفة وباخلاصه له . فدفع الخطاب الى شخص يعتمده ـ او كذلك ظن . والحقيقة ان الرجل تناول الكتاب ، واعطاه الى كورش .

ولما وقف كورش على محتواه ، القى القبض على (اورونتاس) ، واستدعى الى خيمته الخاصة السبعة الممتازين جدا من مساعديه الفرس . واوعز الى القادة اليونانيين بجلب مشاة ثقيلة ، واتخاذ موقف الحراسة حول الخيمة ، فامتثلوا اوامره ، وجلبوا ما يقرب من ثلاثة آلاف راجل من الصنف الثقيل . واستدعى كورش القائد (كليرخوس) داخل خيمته راسا للاسهام في الاجتماع ، لان كورش ذاته والفارسيين الآخرين عدوا (كليرخوس) بصورة عامة افضل اليونانيين منزلة . وبعد مغادرة (كليرخوس) الاجتماع ، اخبر اصدقاءه كيف جرت محاكمة (اورونتاس) ، اذ لم يكن ثمة مانع من الاخبار بذلك . فقال : (ان كورش استهل القضية بالكلام التالي : « اصدقائي ، لقد استدعيتكم للاجتماع هاهنا بقصد البت في الاجراء اللازم بخصوص (اورونتاس) كي ـ بعد المشاورة معكم ـ نقرر النهج المصيب كما تراه الالهة والناس . كان هذا الرجل ، اول الامر ، قد عُيّن من قبل والدي ليكون تحت امرتي ، ثم بموجب تعليمات شقيقي ، كما يقول ، اغتصب حصن (سرديس) ، وشهر الحرب علي . فقاتلته وحملته على ان يقرر ايقاف القتال ضدي . ثم مد كل منا للآخر يمين الصداقة . منذ ذلك الحين ، يا اورونتاس استمر كورش ، هل اذيتك باي شكل كان ؟ » فاجاب اورونتاس بالنفي . ثم وجه سؤالا آخر : « اليس يقينا ، مع انك لم تلق مني اي ضرر فيما بعد ، كما تعترف بنفسك ، قد تحولت الى (الميسيين)(٤٦) ، والحقت بمنطقتي كل ما تمكنت عليه من الضرر ؟ » فاعترف اورونتاس انه قد فعل ذلك . وقال كورش : « اليس صحيحا انك ، عندما عدت فاكتشفت حقيقة قولك ، قصدت هيكل ارتاميس(٤٧) وقلت انك قد ندمت ، ونتيجة لتوسلاتك ، عدنا فتبادلنا العهد على الصداقة ؟ » فسلم اورونتاس بصحة ذلك ايضا . فقال كورش : « اذن ما هو الاذى الذي بدر مني تجاهك هذه المرة الثالثة ، لتبرر خيانتك الجلية فيها ؟ » اجاب اورونتاس انه لم يتصبب باي اذى . فساله كورش : « اذن ، اتسلم ان تصرفك نحوي كان خاطئا ؟ » فقال اورونتاس : « فعلا . اني مضطر ان اعترف بذلك » . ثم ساله كورش سؤالا آخر : « اماتزال في مقدورك ان تكون خصما لشقيقي ، وصديقا صدوقا لي ؟ » : فرد قائلا : « حتى وان

---

(٤٥) يذكر النص الانكليزي (Panic Corn) ولم استطع الوقوف على مدلول لها في القواميس التي في حوزتي .

(٤٦) ذكر الاستاذ فؤاد جميل في ص ٢٣٤ من مجلة سومر ـ ع (٢٠) أن (الميسنيين) هم قوم من العرب ، واعتقد أن ثمة فرقا بين (الميسنيين) وبين (الميسيين) الذين هم سكان ميسيا (Mysia) الواقعة غربي الاناضول حيث استبعد ان تكون قد قطنت من قبل اقوام عربية قديما .

(٤٧) الاهة القنص والقمر وشقيقة (أبولو) عند الاغريق .

كنت ساعمل ذلك ، فانت ـ ياكورش ـ لم تعد قـــادرا على تصديقه » .

(بعد ذلك ، خاطب كورش الآخرين هنـــاك : « هاهي تصرفات الرجل وكلماته امامـــكم . هل لك ، ياكليرخوس ، ان تبدي رايك اولا ، وتفصح عمـا تفكر ؟ » فقال كليرخـوس : « نصيحتي هي ازاحة الرجل من السبيل باسرع ما يمكن ، لئلا نضطر ثانية الى الاحتراس منه ، بل سنكون طليقي الايـدي ، بقدر ما يتعلق الامر به ، لنسدي الخير الى الآخرين الذيـــن يرومون ابداء العون حقا . ») .

واستطرد كليرخوس قائلا : « لقد وافقوا على فكرتي ، ثم وقفوا جميعا ، حتى الفرياء اورونتاس ، وامسكوه من زنـــاره كعلامة على الحكم عليه بالموت . ثم اقتاده الذين عهدت اليهـم المهمة ، بعيدا ، واولئك الذين قد اعتادوا الانحناء له سابقا ، انحنوا له آنذاك ايضا ، ولو انهم علموا بانه كان يقاد الى حتفه. فجيء به الى خيمة (ارتاباتاس) وهو افضل ثقات كورش مـن حملة صولجانه . غير ذلك ، لم يلمح احد مطلقا اورونتاس حيا او ميتا ، ولا استطاع اي فرد ان يتكلم ، عن دراية ، كيـــف لقي منيته . » لقد اثيرت عدة ظنون ، بيد انه لم يهتد الى اي ضريح يضمه .

من هنا ، واصل التقدم نحو (بابل) ، فاجتاز (٣٦) ميلا خلال ثلاثة ايام . وعند ختام مسيرة اليوم الثالث ، استعرض كورش عساكره اليونانية والوطنية (الفارسية) في البـــراح حوالي منتصف الليل ، اذ حسب ان العامل سيبرز فجر الغد بجيشه للقتال . فامر (كليرخوس) بقيادة الميمنة ، وميثـون (الثسالي) بقيادة الميسرة ، بينما هو نفسه اهتم بتنســـيق عسكره الخاص .

مع انبلاج الصبح ، وبعد العرض ، قدم بعض الهاربين من العامل العظيم ، وزودوا كورش بمعلومات عن جيش العامل . فجمع كورش القادة وضباط المئة الاغريق لبحث كيفية خوض المعركة ، ثم خطب بنفسه يستحثهم لبذل المزيد من الجهود : « ايها الجنود الاغريق : لست قائدكم معي في المعركة لقـــلة في جنودي الوطنيين . كلا ، ان الباعث على نشداني معاضدتكم ، لهو اعتباري انكم اكثر كفاءة ومهابة من اعداد هائلة من الوطنيين. لذا اود ان تبرهنوا انكم اهل للحرية التي ظفرتم بها ، والتي اظنكم سعداء في امتلاكها . لكم ان تتاكدوا اني افضل احراز تلك الحرية على كافة ما اقتني وزيادة على ذلك بكثير . لكن ، لاعرفكم ايضا ، نوع القتال الذي ستخوضون ، ساخبركم عن ذلك من تجاربي الخاصة . اعداد العدو ضخمة جدا ، وهم يفـــوقون بصراخ كثير ، لكنكم ان صمدتم تجاه ذلك ، فانا اخجل حقـــا ان اقول اي صنف من الناس ستجعون رجال هذه البلاد في كل ناحية من النواحي الاخرى . لكنكم ان برهنتم على كونكم رجالا ، واذا كنت موفق الجدود ، فساضمن لكم ان الذين يرومون منكم العودة الى الوطن ، سيحسدون من رفاقهم عند وصولهم هناك ، ولو احسب اني ساجعل العديد منكم يفضلون ما سينالون مني هنا على ما سيحصلون عليه في الوطن » .

ثم تكلم (جوليتيس) الذي حضر الاجتماع ، وهو احـد المبعدين من (ساموس)(٤٨) وكان موضع ثقة كورش ، فقـال : « ومع ذلك ، ياكورش ، بعض الناس يقولون ، انك الآن تمنح الوعود الكثيرة بسبب من حراجة موقفك واعتراض الخطر سبيلك وبالنسبة اليهم ، ان جرت الامور جريا حسنا ، فسوف لـــن تتذكر . ويقول بعضهم ، حتى اذا توفرت لديك الذاكرة والارادة فسوف لن تملك الطاقة على تنفيذ جميع الوعود التي قطعتها » .

فلما وعى كورش ذلك ، قال : « لكن ، ايها الجنود ، هاهي امبراطورية والذي تمتد امامنا . انها ممتدة جنوبا حيث الحر ، وشمالا حيث البرد قاتل دون عيش البشـــر . ان اصدقاء شقيقي يحكمون كولاة على كل الارض المحصورة بـين الحدين . اما اذا ربحنا ، فسينبغي ان نجعل من اصدقائنـا سادة على كل هذا . ونتيجة لذلك ، ان خشيتي من عـــدم حصولي على عدد واف من الاصدقاء لاعطائهم ما اتمكن منـه ، تفوق عدم حوزتي على ما امنح رفاقي قاطبة ، اذا سارت الامور سيرا حسنا . كما اني ساخلع على كل يوناني فيكم خلعـــة اضافية من تاج ذهبي » .

عندما اصغى اليونانيون الى ذلك ، غدوا اشد حماســا بكثير ، وبلغوا الآخرين ذلك . فالقادة وعداهم من اليونانيين الذين ودوا معرفة ما سينالون ان كسبوا ، قصدوا كورش بصورة خصوصية ، فارضى كل آمالهم قبل ان سمح لهـم بالخروج . ان جميع الذين بحثوا الامور معه ، حثوه على عدم الاسهام في المعركة شخصيا ، بل على اتخاذ موضع في المؤخرة . عند ذاك ساله (كليرخوس) سؤالا كهذا : « هل تحســب ـ ياكورش ـ ان اخاك سيتقدم الى المعركة ؟ » فاجاب كورش : « حتما ، ان كان هو شقيقي ونجل (داريوس) و (باريزاتس) فسوف لن احصل على السلطان ، من غير القتال في سبيله » .

ثم احصي المدججون ، فكان في الجيش اليوناني عشـــرة آلاف واربعمئة من مشاة الصنف الثقيل ، والفان وخمسمئة من مشاة الصنف الخفيف . وكان لدى كورش مئة الف جندي فارسي ، وما يقرب من عشرين عجلة مسننة ، وقيل ان بجانب العدو مليونا ومئتي الف رجل ، ومئتي عجلة حربية مسننة ، وعلاوة على ذلك ، كان هناك ستة آلاف فارس تحت امـــرة (ارتاجرسس) وقد تخلوا مواضعهم لحماية شخص الملك ذاته . كانت قيادة جيش الملك بيد اربعة قواد او زعمـاء : (ابروكوماس) ، (تيسافرنوس) ، (جوبرياس) و (ارباكس) ـ لدى كل منهم ثلاثمئة الف جندي تحت امرته . لقد اشترك في المعركة ، من مجموع هذه القوة ، تسعمئة الف جندي ومئة وخمسون عجلة حربية مسننة فقط ، اذ ان (ابروكوماس) الذي كان يزحف من (فينيقيا) وصل متاخرا خمسة ايام . لقد تلقى كورش هذه المعلومات من الهاربين من جانب العامل العظيم قبل المعركة ، وافاد الاسرى الاعداء ، الذين اخـذوا بعد المعركة ، عين الخبر .

لقد سار كورش بكامل جيشه اليوناني والفارسي مسافة تسعة اميال من هذا الموضع ، خلال يوم واحد بنظام حربي ، وتوقع من العامل ان يشتبك معه ذا لمنا اليوم ، اذ انتـــاء منتصف مسيرة النهار تقريبا ، كان ثمة خندق عميق ، عرضه (٣٠) (٤٩) قدما وعمقه (١٨) (٤٩) قدما . وكان امتداد الخندق نحو الداخل على السهل حتى يبلغ السور المادي . امـــا بجوار الفرات ، فكان ثمة مجاز ضيق عرضه حوالي (٢٠)

---

(٤٨) Samos جزيرة اغريقية في بحر (ايجه) .

(٤٩) يذكر النص الانكليزي (3 Fathoms) 5 Fathoms والفاثوم الواحد يعادل (٦) اقدام . واعتقد ان هـذا الخندق هو خندق (الوشاش) المعروف ايضا بنهـر الصقلاوية .

قدما بين النهر والخندق ، ولقد احتفر العامل العظيم ذلك الخندق كعقبة ، عندما بلغه تقدم كورش . فاجتاز كورش ذلك المجاز بجيشه ، وبات فيما وراء الخندق .

عندئذ ، اخفق العامل ذلك اليوم في الشروع في المعركة ، لكن علامات عديدة قد شوهدت تدل على تراجع الرجال والخيول . اذ ذاك ، استدعى كورش العراف (سيلانوس الاسباراسي) واعطاه ثلاثة آلاف جنيه . ولقد انبأ كورش قبل احد عشر يوما ، اثناء تقدمه القربان ، ان العامل لن يشرع في المعركة خلال الايام العشرة المقبلة ، فقال له كورش : « اذن ان هو لا يحارب خلال تلك الفترة ، فان يحارب مطلقا . اما اذا تحقق قولك ، فاعدك عشر وزنات من الفضة »(٥٠) ولما انصرمت الايام العشرة ، دفع له المال .

وبما ان العامل لم يقم ، عند الخندق ، بمحاولة للحيلولة دون عبور عسكر كورش ، اعتقد كورش والبالغون ان العامل قد عدل عن فكرة القتال . ونتيجة لهذا الاعتقاد ، زحف كورش في اليوم التالي قدما باحتراس اقل من السابق . وفي اليوم الثالث ، تابع المسير وهو في عجلته الحربية ، تتقدمه تشكيلات نظامية اعتيادية قليلة فقط . كان معظم جيشه سائرا بدون شكل نظامي ، وكان الكثير من معدات الجنود محمولا على العربات وحيوانات نقل الامتعة .

كان الوقت ضحى ، واوشكوا ان يبلغوا الموضع الذي صمم كورش على التوقف عنده ، عندما برز (باتجياس) للعيان ، وهو فارسي وصديق حميم لكورش ، راكبا بسرعة ، وحصانه ينضح عرقا . وشرع في الحال يصيح عاليا بالفارسية واليونانية ، على كل من اجتاز به ، ان العامل متقدم بجيش جرار بنظام حربي . اذ ذاك ، وقع بينهم فعلا ارتباك جسيم ، لان اليونانيين ، وكل من عداهم ، ظنوا ان العامل سينقض عليهم قبل ان يستطيعوا اتخاذ مواضعهم . فقفز كورش من عجلته ، ووضع عليه الدرع ، وامتطى جواده ، وقبض على رماحه . واوعز الى البالغين قاطبة ، ان يتدججوا بالسلاح ويتخذوا اماكنهم الصحيحة . فتم ذلك بسرعة كافية . كان (كليرخوس) على الميمنة يحاذيه الفرات ، والى جانبه (بروكسينوس) ثم اليونانيون الآخرون مع (مينون) على ميسرة الجيش اليوناني . اما الجيش الفارسي ، فكان يضم زهاء الف فارس (بالفلاجوني) (٥١) احتلوا مواضعهم في جناح (كليرخوس) وكذلك مع مشاة الصنف الخفيف على الميمنة . اما (آريوس) ـ نائب كورش ـ فكان على الميسرة مع بقية الجيش الفارسي . كان كورش وستمئة من فرسانه الخاصين به في القلب ، مزودين بالدروع ، وبالزرود لوقاية افخاذهم . لقد وضع جميعهم الخوذ على هاماتهم ، خلا كورش الذي دخل المعركة حاسر الراس . وكانت كل خيولهم مزودة بالزرود لصيانة الجباه والصدور ، كمل حمل الفرسان السيوف اليونانية .

فحان الظهر ، والعدو ما برح غير بادٍ للعيان ، لكن في اول العصر ، لاح النقع كسحابة بيضاء ، وبعد فترة ، شوهد شيء كالسواد يمتد نحو مسافة طويلة على السهل . ولما ازدادوا دنوا ، لمحت فجاة ومضات برونزية ، وبدت رؤوس الحراب وتشكيلات العدو مرئية . كانت ثمة خيالة بزرود بيضاء على الميسرة قيل انها تحت امرة (تيسافرنوس) والى جوارهم جنود يرتدون التروس المصولة من الاقصان المجدولة ، يليهم مشاة من الصنف الثقيل بتروس خشبية حتى القدمين ، وقيل عن هؤلاء انهم فرعونيون . ثم كان هناك المزيد من الخيالة ورماة السهام . هؤلاء كلهم كانوا يتقدمون بشكل فصائل ، كل فصيلة على هيئة مستطيل كثيف ، تتقدمهم على مسافات متباعدة عن بعضها عجلات حربية مسننة ، مزودة بالسنة رقيقة تمتد بشكل مائل من المحورين الموصلين بين العجلات وكذلك من اسفل مقعد السائق منكسة نحو الارض ، وذلك ليترك كل ما يعترض طريقها ، وكانت النية تسييرها لتخترق صفوف اليونانيين وتشق الطريق .

لكن كورش كان مخطئا عندما اوصى اليونانيين ، اثناء اجتماعهم به ، بالثبات في مواضعهم تجاه صراخ الجنود الفارسيين . اذ على العكس ، تقدموا بالقصى السكون والهدوء وبسير وئيد ثابت .

هنا توجه كورش نفسه راكبا مع ترجمانه (بيجرس) وثلاثة او اربعة آخرين ، ونادوا (كليرخوس) واخبروه ان يقتاد عسكره باتجاه قلب العدو ، اذ ان العامل كان هناك . وقال : « وان نفز هناك ، يتم كل شيء » . لاحظ (كليرخوس) ان الوحدات في القلب متراصة ، وسمع من كورش ان العامل اقصى من ميسرة اليونانيين ، فقد كان تفوق العامل في العدد عظيما الى حد غدا العامل معه ، وهو يقود قلب جيشه ، ابعد من ميسرة كورش ، لكنه بالرغم من ذلك (اي كليرخوس) كان مترددا بسحب جناحه الايمن من ناحية النهر ، خشية التطويق . فرد على كورش عندئذ انه سيضمن سير الامور سيرا حسنا .

واذ كان ذلك يجري ، واصل الجيش الفارسي (٥٢) تقدمه برسوخ ، وظل الاغريق ملازمين مواقعهم ، وازدحمت صفوفهم باولئك الذين ما انفكوا يتوافدون باستمرار . فبرز كورش راكبا امام الجيش ، وتطلع نحو خطوط الفريقين . فلمحه (زينوفون) الاثيني ، من موضعه في الخط اليوناني ، وتقدم نحو مواجهته ، واستفسره ان كان يعتزم توجيه اية اوامر . فجذب كورش جواده ، وقال : « الفال حسن والقرابين جيدة » واخبره بتبليغ ذلك كل فرد ، وبينما كان هو يتكلم ، سمع صوتا على طول الصفوف ، فاستعلم عنه ، فاخبره (زينوفون) انها كلمة السر المرسلة عبر الصفوف للمرة الثانية . فتعجب كورش من يكون مطلق الكلمة ، وسال عن ماهيتها ، فاجاب (زينوفون) انها كانت (زيوس المنقذ ، والظفر) . عند سماع كورش ذلك ، قال : « اذن اتقبل الكلمة . فلتكن كذلك . » ومع هذه الكلمات ، غادر راكبا نحو مركزه في الميدان .

ساعتئذ ، لم تكن الشقة بين الجيشين تعدو ستمئة ـ ثمانمئة ياردة ، فشرع الاغريق الآن ينشدون نشيد الحرب . واخذوا في التقدم صوب العدو . واذ هم يتقدمون ، جاشت موجة من الغبار نحو الامام ، وبرزت امام البقية ، وشرع الشطر المتخلف في التقدم بهيئة ازدواجية . وفي ذات الحين ، اطلقوا جميعهم صرخة كصرخة (اليلو) (٥٣) التي يوجهها الناس

---

(٥٠) يذكر النص الانكليزي (Ten Talents) و (التالنت) عيار فضي يعادل حوالي (٢٤٤) جنيها استرلينيا .

(٥١) نسبة الى (بالفلاجونيا) اقليم في شمال الاناضول (آسيا الصغرى) يطل على البحر الاسود .

(٥٢) جيش العامل .

(٥٣) "Eleleu" ضرب من الهتاف اما لبث الرعب في قلوب الاعداء او لشحذ الهمم لدى المحاربين .

الى آلاه الحرب ، ثم أخذوا يعدون نحو الامام . ويقول البعض انهم ، كي يبثوا الرعب في الخيل ، شرعوا يصدمون تروسهم بحرابهم . أما الفرس ، فقبل ان باتوا على مرمى السهام ، تذبذبوا وولوا الادبار . وبعد ذلك جد اليونانيون حقا في ملاحقتهم بعزم ، لكنهم تنادوا فيما بينهم بعدم الركض ، بل ان يتتبعوا العدو متراصين ، دون تباعد في الصفوف ، فبادرت العجلات الحربية بالهجوم ، وتغلغل بعضها داخل صفوف العدو ، مع أن بعضها ، وقد هجرها سائقوها ، اخترقت جموع اليونانيين . عندما شاهد اليونانيون قدومها ، انفرجوا ، ولو ان جنديا ، وقف راسخا في موضعه وكانه في حلبة سباق ، ثم تدحرج . على كل حال ، حتى هذا الشخص، قيل انه لم يصب بادى ، كما لم تقع اية اصابات بين اليونانيين اثناء هذه المعركة ، باستثناء جندي واحد في الجناح الايسر ، قيل انه رشق بسهم .

لقد سُر كورش تماما اذ لاحظ غلبة اليونانيين ، واكتساحهم العدو من امامهم ، وتمت المناداة به ملكا من قبل اولئك الذين كانوا بمعيته ، لكنه لم ينجرف الى درجة الاشتراك في المطاردة . لقد حافظ على الفرسان الستمئة من حرسه الخاص بهيئة متراصة ، وارتقب بنظر ما سيقدم عليه العاهل ، لانه كان موقنا أن موضعه وسط الجيش الفارسي . والحقيقة ، ان القادة الفرس كافة ، يتخذون اماكنهم وسط وحداتهم عند اشتراكهم في المعمعة ، والقصد من ذلك ، انهم بهذه الطريقة يمسون في اسلم موضع ، مع قواتهم على كل جوانبهم ، وان اعتزموا اصدار الايعازات ، وصلت جيشهم في نصف المدة . وفي هذه المرة ، كان العاهل كذلك في قلب عسكره ، لكنه كان ، مع ذلك ، ابعد من جناح كورش الايسر . ولما لم يلاحظ ، عندئذ ، هجوما جبهويا عليه ، او على الوحدات الحائلة دونه ، استدار ميمما شطر اليمين بحركة مثنية .

ثم ان كورش ، اذ خشي ان يصبح العاهل خلف اليونانيين فيمزقهم ، تحرك نحوه راسا . فانفار مع الستمئة الذين معه ، واخترق ستار الجند امام العاهل ، ودحر الستة آلاف ، واشيع انه قتل بيده آمرهم (ارتاجرسس) ، لكن عندما لاذوا بالفرار ، فقد الستمئة ، التابعون لكورش ، ترابطهم اثناء اندفاعهم المتحمس في مواصلة الملاحقة ، وتخلف معه عدد قليل جدا ، اظنهم اولئك الذين اطلق عليهم « رفاق المائدة » . وعندما بقي مع هذا العدد الضئيل ، لمح العاهل والصفوف المتراصة حوله ، ودون ان يتردد لحظة ، صاح :« ارى الرجل » ، وهجم عليه ، ووجه نحو صدره طعنة اخترقت درعه فجرحته ، كما يقول (تسياس) الطبيب ، وقال ايضا انه ضمد الجرح بنفسه . لكنه في ذات اللحظة التي كان يوجه اثناءها الطعنة (تسياس) ـ الذي كان مع العاهل ـ انه قد سقط العديد من جنود العاهل اثناء اقتتال العاهل وكورش . لكن كورش نفسه قد قتل ، وارتمى على جثمانه بلا حراك لمائية من انبل حاشيته . لقد قيل ان (ارتاباتاس) اوتق خادم من حملة صولجانه ـ اذ لمح (كورش) صريعا ، قفز عن جواده ، ورمى نفسه عليه . ويقول البعض ان العاهل امر من يقتله وهو مسجى على كورش ، ويقول آخرون انه سحب سيفه ، وقتل نفسه هناك . كان لديه سيف ذهبي ، وقد اعتاد ان يضع عليه سلسلة وقلادة والحلى الاخرى نظير انبل الفرس ، لانه كان يعد من قبل كورش صديقا صدوقا ، وخادما مؤتمنا (٥٤) .

ثم حزّ راس كورش وكذلك يمينه ، وانقلب الملك ملاحقا ، واخترق معسكر كورش . فلم يلبث رجال (اريوس) بعدئذ ، بل ركنوا الى الفرار خلال معسكرهم حتى بلغوا آخر مرحلة توقفوا عندها قبل ان تحركوا . وقيل ان ذلك الشوط يبلغ (١٢) ميلا .

ضمن الاسلاب العديدة التي استحوذ عليها العاهل واصحابه ، حظية كورش ، وهي فتاة من (فوسيا)(٥٥) ، قيل انها خلوب وفهيمة في آن معا . أما حظيته الصغرى ، وهي غادة من (ملاطية) ، فقد اسرها جنود العاهل ، لكنها افلتت منهم نصف عارية ، ولجأت الى اليونانيين الذين اتفق ان كانوا هنالك ، شكاك السلاح ، يحرسون المتاع . فاخذوا مواضعهم ، وافنوا عددا من السالبين ، ولو ان قسما منهم قد قتل ايضا . الا انهم ، لم ينهزموا ، بل انقذوا الفتاة وكذلك جميع الممتلكات من اموال وعبيد ، كانت في معسكرهم .

في هذه المرحلة ، بات جيش العاهل وصلب العسكر اليوناني على مسافة ثلاثة اميال من بعضهما . كان اليونانيون يطاردون القوات المجابهة لهم ، وكانهم قد احرزوا نصرا ناجزا ، وكان الفرس منهمكين في السلب ، وكان فوزهم بات كاملا كذلك . بيد ان اليونانيين اكتشفوا ، غب ذلك ، ان العاهل وجنوده اضحوا بين امتعتهم ، وسمع العاهل من (تيسافرنوس) ان اليونانيين قد دحروا الوحدات المجابهة لهم ، وانهم مندفعون قدما يواصلون الملاحقة . عندئذ استجمع قواته وهياها بنسق حربي ، بينما استدعى (كليرخوس) القائد (بروكسينوس) الذي كان يليه ، وبحث معه ان كان ينبغي ارسال مفرزة لانجاد المعسكر ، ام ان يسير الجميع الى هناك سوية .

في نفس الحين ، تجلى ان العاهل ايضا ، عاد يتقدم نحوهم مجددا ، كما قلنا ، من المؤخرة . اذ ذاك ، واليونانيون يفترضون قدومه من هناك ، استداروا وتهياوا لمناوشته . بيد أن العاهل لم يتقدم بجيشه من تلك الجهة ، بل ـ كما فعل سابقا بالضبط بان اجتاز ميسرة اليونانيين ـ اقتاد الآن جيشه عائدا بنفس الطريق ، آخذا معه من فر الى اليونانيين أثناء المعركة ، وكذلك (تيسافرنوس) والجنود الذين تحت امرته .

ان (تيسافرنوس) لم ينهزم اثناء الغارة الاولى ، لكنه تقدم شطر مشاة الاغريق من الصنف الخفيف بطاء النهر ، واخترق صفوفهم . بيد انه لم يقتل شخصا واحدا ، فقد

---

(٥٤) يعتقد الاستاذ طه باقر ان موضع هذه المعركة قريب من (المسيب) الحالية ، استنادا الى ما ورد في ص ٤١٣ من كتابه (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ الجزء الثاني) ، بينما يعتقد الدكتور احمد سوسه (استنادا الى رسالة شخصية الى المترجم مؤرخة في ٦٥/٨/٢١) أن موقع هذه المعركة قريب من (الانبار) لكنني اعتقد أن موقعها قريب من (تل كنيسة) القريب جدا من الفرات وجدول (الرضوانية) وربما يكون موقعها قريب من (اليوسفية) .

(٥٥) اما انها مستعمرة ايونية ـ وهي ميناء اغريقي قديم في آسيا الصغرى (تركيا اليوم) ـ او انها ولاية اغريقية قديما في شرقي (بيوطيا) شمالي خليج كورنث .

أفرج اليونانيون صفوفهم ، واعملوا في رجاله السيوف والرماح . كان (ايبستنيز) الذي من (أمفيبوليس)(٥٦) آمرا على مشاة الصنف الخفيف ، وقيل انه قد ابدى مهارة فائقة . ولما الفى (تيسافرنوس) انه المتضرر من جراء الاشتباك ، لم يعد الكرة بهجوم آخر ، بل توجه نحو المعسكر اليوناني حيث التقى العاهل ، وهناك التأمت قواتهما ، وسارا عائدين بنظام حربي . وبما انهم كانوا مقابل ميسرة اليونانيين ، خشي اليونانيون أن يداهم الفرس هذا الجناح ، ويطبقوا عليهم من الجانبين فيمزقوهم تمزيقا . لذا بدت لهم أفضلية تمديد الجناح المذكور ، تاركين النهر خلفهم . لكنهم بينما كانوا يبحثون هذه المناورة ، غير العاهل الاتجاه على حين غرة ، ومضى مجتازا بهم بان جعل خطه يواجه جبهتهم بنفس الهيئة التي برز فيها لمقاتلتهم في الجولة الاولى .

فعندما لاحظ اليونانيون اصطفافهم تجاههم متكاتفين ، انشدوا نشيد القتال ثانية ، وحملوا عليهم بروح عدائية اقوى من السابق . فاخلق الفرس في الصمود بوجه الغارة ، والحقيقة انهم ركنوا الى الفرار ، حتى عندما بات اليونانيون على مسافة ابعد مما كانوا عليه في الجولة السابقة . فتعقبهم اليونانيون حتى ادركوا قرية ، فتوقفوا هناك لوجود رابية فوق القرية ، وانثنى رجال العاهل على هذه الرابية لمعاودة القتال . لقد كان المشاة ، في الحقيقة ، يواصلون الانهزام ، لكن الرابية قد اكتظت بالفرسان ، فلم يعد من الميسور رؤية ما يدور . وقالوا انهم شاهدوا شعار العاهل بشكل نسر ذهبي ، على حربة ، منشور الجناحين .

كان اليونانيون ، في الواقع ، يزحفون نحو هذا الموضع عندما كانت الخيالة ايضا تغادر الربوة لا بشكل وحدة متراصة ، بل فصائل مختلفة باتجاهات متغايرة ، حتى تجردت الرابية من الخيالة تدريجا ، وانزاحوا نهائيا . ولم يرتق (كليرخوس) التل ، بل اوقف جيشه عند سفحه ، وانفذ (ليسيوس) السيراقوسي(٥٧) وفردا آخر نحو المقة ، يرتق (كليرخوس) التل ، بل اوقف جيشه عند سفحه ، هنالك . فارتقى (ليسيوس) راكبا ، وبعد استطلاعه ، عاد مخبرا بتقهقر العدو التام .

وحينما كان هذا يجري ، كانت الشمس آخذة في الغروب، فتوقف اليونانيون حيث كانوا ، وجمعوا السلاح ، واخلدوا الى الراحة . في ذات الحين ، تعجبوا لعدم ظهور كورش في اي موضع ، ولعدم ورود مخبر منه . اذ لم يعلموا انه قد قضى ، بل خُيّل اليهم اما انه قد انطلق لمسافة في اثر العدو ، او قد واصل السير لاحتلال مركز ما . اما هم ، فبعد أن تشاوروا في أمر مكوثهم حيث كانوا ، وجلب امتعتهم اليهم ، او عودتهم الى معسكرهم ، قرروا الأوبة . فوصلوا خيامهم اوان العشاء ، وتلك كانت خاتمة ذلك النهار . لقد اكتشفوا ان جميع امتعتهم تقريبا ، ومنها ارزاقهم وشرابهم ، قد انتُهبت . كما كانت هناك بعض عربات ـ قدرت باربعمئة ، مزودة بالشعير والنبيذ ، هيأها كورش لقد اليونانيين بها اذا حدث

(٥٦) مدينة تفيد معنى المدينة المدورة في (مقدونيا) .

(٥٧) نسبة الى سيراقوس (Syracuse) ثغر قديم في طرف الجنوب الشرقي من جزيرة (صقليا) ، حاصرها الاثينيون حصارا فاشلا بين عامي ٤١٤ و ٤١٣ قبل الميلاد .

نقص كبير في مؤن الجيش . لقد نهب رجال العاهل هذه العربات كذلك ، حتى بات اكثر اليونانيين بلا عشاء . فالحقيقة انهم لم يتناولوا وجبة الظهيرة ، لان العاهل برز اليهم قبل توقف الجيش لتناول الغداء . وهكذا امضوا تلك الليلة .

عند الفجر ، التام القادة ، مستغربين عدم أوبة (كورش) ذاته ، وعدم ايفاده مخبرا يعلمهم ما ينبغي ان يفعلوا . وبحكم الظروف ، عزموا على حزم حاجياتهم ، ومواصلة التقدم ، مدججين ومتاهبين للقتال ، حتى يتسنى لهم الالتحاق بكورش. لكن ، مع بزوغ الشمس في الفضاء ، تماما ، وهم على وشك التحرك ، وصل (بروكلس) ـ Procles ـ حاكم (يتوثرانيا) ـ سليل (دامارانوس) ـ Damaratus الاسبرطي ومعه « جلوس » نجل « تاموس » بنبا مفاده ان (كورش) ميت ، وان (آريوس) قد ركن الى الفرار ، وانه الآن مع بقية القوات الوطنية(٥٨) ، عند آخر مرحلة توقفوا عندها وتحركوا منها في اليوم المنصرم . كانت الرسالة من (آريوس) تفيد انه سينتظر سحابة النهار ليرى ان كانوا(٥٩) سيلحقون به ، لانه قد ارتأى ان ينطلق في الغد الى (ايونيا)(٦٠) التي توجه منها .

عندما سمع القادة هذا النبا ، وعلم به اليونانيون الآخرون ، ألم بهم قنوط شديد . فتكلم (كليرخوس) قائلا : « تمنيت أن يكون (كورش) حيا يرزق . على كل حال ، لما كان قد قضى ، فيجب أن تخبروا (آريوس) اننا قد قهرنا العاهل ، وكما ترون ليس ثمة عقبة دوننا الآن . في الحقيقة ، لولا قدومكم ، لكنا الآن زاحفين عليه . اننا نعد (آريوس) ان اتانا ، فسنجلسه على عرش الملك . واولئك الذين يربحون المعركة ، لهم كذلك الحق في السلطة العليا » .

بهذه الكلمات أعاد الرسولين ، واوفد معهما (خريسوفوس) الاسبرطي و (مينون) الثسالي(٦١) . كان مينون يتشوق الى الذهاب تلقائيا ، اذ كان خليل (آريوس) وكان له نصيب من حسن ضيافته .

فذهبوا وتخلف (كليرخوس) . وتزود الجيش بالطعام باحسن ما تيسر من دواب نقل الامتعة ، وذلك بنحر الثيران والحمير . واستحصلوا الوقود بالتقدم قليلا ، بعيدا عن الخط ، باتجاه ميدان المعركة التي خاضوا ، مستعملين السهام الوفيرة التي القاها على الارض الفارون من جانب العاهل ، عندما ارغمهم اليونانيون على ذلك في ساحة المعركة بالأمس ، والدروع المجدولة من اغصان الشجر ، ودروع الفرعونيين الخشبية . كما كان عدد من التروس الخفيفة والمركبات التي هجرها سائقها . فاستعملوا كل هذه المواد لانضاج اللحم، فتناولوا وجبة ذلك النهار .

(٥٨) يقصد جيش كورش الفارسي .

(٥٩) يقصد اليونانيين .

(٦٠) Ionia ـ المنطقة الساحلية من غرب آسيا الصغرى والجزائر المحاذية لها وكانت مستعمرات اغريقية .

(٦١) من منطقة (ثساليا) في شمالي اليونان ، مشهورة بسهولها التي تنتج الحبوب ، أهم مدنها (لاريسا) ـ Larissa .

كان الوقت قد ناهز الضحى عندما وفد المخبرون من لدن العاهل ، ومن (تيسافرنوس) . كانوا من الفرس بأجمعهم ، خلال واحدا يدعى (فالينوس) ، فكان هذا يونانيا في خدمة تيسافرنوس الذي كان يعتد به كثيرا ، اذ ادعى البراعة في التدريب وفنون المشاة الحربية . جاء هؤلاء راكبين ، وطلبوا الكلام مع القادة اليونانيين ، فقالوا بما ان العاهل قد احرز النصر وقضى على (كورش) ، امر اليونانيين بالقاء اسلحتهم، وبالتوسل في البلاط ، وباستحصال الحظوة الملكية لانفسهم ، ان استطاعوا .

هذا ما قال مخبرو العاهل ، فحنق اليونانيون اذ سمعوه بيد أن (كليرخوس) لم يزد على القول : « ليس للظافرين أن يسلموا أسلحتهم ، لكن ــ انتم القادة الآخرون ــ عليكم ان تعدوا ما يلوح لكم افضل وانبل رد على هؤلاء الرجال . ساعود حالا . » فقد استدعاه احد ضباطه لفحص الاحشاء المستخرجة من الضحية ، وهو يؤدي الشعائر القربانية .

عندئذ اجاب (كليئور) الأركادي(٦٢) ، الذي كان اكبرهم سنا ، انهم سيموتون قبل القاء اسلحتهم . وقال (بروكسينوس) الثيبي(٦٣) : « ان ما يحيرني ، يافالينوس ، هو فيما اذا كان العاهل يطالب باسلحتنا بحق من الظفر ، أم كهدايا للاعراب عن صداقتنا . ان كان بحق الظفر ، فليمَ يطالبنا بها دون القدوم لاخذها ؟ وان كان يبغي الحصول عليها نتيجة اتفاق ، فليقل ما الذي سيكسبه الجنود ، اذا كانوا على استعداد ان يسدوا اليه هذا الفضل » .

اجاب (فالينوس) على هذا بالقول : « يعتبر العاهل النصر له ، مادام قد قتل (كورش) . اذ ، في الحقيقة ، من تبقى لينازعه الامبراطورية ؟ كما يعتقد انكم في قبضته كذلك ، مازلتم في أصقاعه المحاطة بانهر لا يستطاع عبورها ، وهو قادر على اجتلاب الحشود العظيمة من الرجال ، لا قبل لكم بافنائها قاطبة ، حتى لو اتاح لكم الفرصة لتفعلوا ذلك » .

بعدئذ ، تكلم (ثيوبومبوس) الاثيني قائلا : « كما ترى ، يا فالينوس ، ان الاشياء الوحيدة ، التي بقيت لدينا حاليا ، ذات قيمة : اسلحتنا وشجاعتنا . مادمنا مالكين السلاح ، نتصور بمقدورنا استخدام بسالتنا جيدا . أما اذا القينا السلاح ، فسنفقد حياتنا كذلك . لذلك لا تتوهم اننا سنسلمكم الاشياء الثمينة الوحيدة في حوزتنا . على النقيض من ذلك ، سنقاتل مستعينين بها ، في سبيل ما تثمنون انتم كذلك » .

فلما وعى (فالينوس) هذا ابتسم وقال : « انك ايها الشاب ، كفيلسوف تهُما . قد اجدت الافصاح ! مع كل ذلك ، دعني افك انك مجلوب لو فكرت أن بسالتكم تستطيع النيل من قدرة العاهل . »

ان الذين حضروا هناك ، افادوا بوجود آخرين طفقوا يفقدون عزيمتهم ، ويقولون انهم كما كانوا مخلصين لكورش ، ستكون لهم قيمة كبيرة عند العاهل كذلك ، اذا ابتغى كسب صداقتهم ، ومن جملة ما ابدوا انه قد يرغب في استخدامهم في تجريدة على مصر ، واذا كان الامر كذلك ، فهم يودون الانخراط معه لفتحها .

لحظتئذ ، وصل (كليرخوس) عائدا ، واستفهم ان هم قد اعطوا الجواب ، بعد . فتدخل (فالينوس) قائلا : « ان هؤلاء الرجال هنا ، ياكليرخوس ، قد اجابوا اجابات متباينة . فاخبرنا الآن ما تقول انت » .

قال كليرخوس : « سرني أن اراك يافالينوس ، وأرجح أن هذا هو شعور الآخرين كافة ، لانك اغريقي كجميع من تشاهد هنا . في ظرفنا الراهن ، نريد مشورتك بشأن ماينبغي علينا فعله بخصوص رسالتك . لذا ارجوك ان تزودنا بنصيحة هي الافضل والاشرف ، في اعتقادك ، ومن النوع الذي يجتلب لك التكريم في المستقبل ، عندما يخبر الناس عنها قائلين : (ان فالينوس قد ارسل ، ذات مرة ، من لدن العاهل ، يطالب اليونانيين بالقاء اسلحتهم . وعندما سألوه النصح ، كانت نصيحته بان قال كذا ... وكذا ...) لانك تعلم أن المشورة ، التي انت مبديها ، سيفشو خبرها في اليونان ، لامحالة » .

لقد نطق كليرخوس بذلك تلميحا ، وفكرته أن يحمل رسول الملك ذاته على نصحهم بعدم القاء السلاح ، كي بهذا يكتسب اليونانيون الثقة . بيد أن (فالينوس) تخلص من ذلك بمهارة ، وتكلم عكس مامول كليرخوس ، قائلا : « مشورتي الا تلقوا اسلحتكم ، ان كانت لكم فرصة واحدة من عشرة آلاف بانقاذ انفسكم عن طريق محاربة العاهل . أما اذا لم يكن لكم مجال واحد في النجاة عن سبيل مناهضة العاهل ، فانصحكم اذ ذاك باتخاذ الخطوات الوحيدة التي في مقدوركم ان تصونوا بها ذواتكم » .

فرد (كليرخوس) على ذلك قائلا : « حسن اذن ، الى هذا القدر من مشورتك . تستطيع الآن أخذ جوابنا ، وهو أننا نعتبر اذا كانت القضية بان نغدو اصدقاء العاهل ، فسنكون اكثر نفعا للعاهل لو احتفظنا باسلحتنا مما لو تركناها لغيرنا ، واذا كانت المسألة قتالا ، فسنحارب ، ونحن نمتلك السلاح ، افضل مما لو كان في حوزة سوانا » .

فقال (فالينوس) : « اذن هذا هو الرد الذي سننقله . لكن العاهل ابلغنا ان ننقل اليكم هذه الرسالة كذلك : انه يعتبر الهدنة قائمة ما لذبتم حيث أنتم ، أما اذا تحركتم قدما ام الى الوراء ، فذلك يعني الحرب . لذا عليك ان تجيبني عن هذه النقطة كذلك ، اذا كنتم ستلتزمون بهذا المكان وتعقدون المهادنة ، أم ينبغي ان ابلغه عنك بانكم معتبروها حالة حرب ».

فاجاب كليرخوس : « قل له ، بصدد هذه النقطة ، اننا نفكر عين تفكيره » .

فقال فالينوس : « وماذا يعني ذلك ؟ »

اجاب كليرخوس : « يعني الهدنة ان مكثنا ، والحرب ان تقدمنا او تراجعنا » .

فاستفهم فالينوس ثانية : « ما الذي سأقول : هدنة أم حربا ؟ » . فاجاب كليرخوس نفس الاجابة مكررا : « هدنة اثناء مكوثنا هنا ، وحرب ان تقدمنا أم تراجعنا » . ولم يشر الى المسلك الذي ارتأى أن يتبع .

عندما غادر (فالينوس) ومن معه ، عاد (بروكلس) و (خريسوفوس) ضمن الوفدين من (آريوس) . أما (ميثون) فلبث مع آريوس . فافادوا أن آريوس قد قال بوجود عدد من الفرس ، ارفع منه منزلة لا يطيقون تنسيبه ملكا . أما ان شاء اليونانيون مرافقته في طريق العودة ، فهو يستحثهم على القدوم تلك الليلة . والا ، فانه مبارح في الغد الباكر .

---

(٦٢) من (أركاديا) وهي منطقة زاهية المناظر في اليونان ، شهيرة بكونها الموطن التقليدي للشعر الريفي .

(٦٣) من (ثيبا) وهي عاصمة (بيوطيا) قديما شرقي اليونان وقد خربها الاسكندر الكبير .

فقال كليرخوس : « حسنا . هذا ما ينبغي علينا فعله . ان نات ، فسيكون كما تقولون . ان لم نات ، فعليكم بانتهاج الخطة التي تحسبون اجدى لكم » . فلم ينبىء ، حتى هؤلاء ، ما الذي كان سيقدم عليه .

بعد ذلك ، عندما غربت الشمس ، استدعى القادة وضباط المئة للاجتماع ، وخاطبهم قائلا : « اصدقائي : عندما كنت اقدم القربان بقصد الزحف على العاهل ، لم تكن الدلائل ملائمة . وهذا طبيعي ، اذ ـ كما ادرك الآن ـ يوجد بيننا وبينه نهر صالح للملاحة ـ الدجلة . لا يسعنا عبور النهر دون زوارق ، ونحن لا نحوزها . من المؤكد لا نستطيع البقاء هنا ، لعدم توفر امكانية الحصول على التجهيزات . اما في حالة الذهاب الى اصحاب كورش ، فدلائل القرابين كانت ملائمة للغاية . الان هذا ما يتحتم علينا ان نفعل : بعد مغادرة الاجتماع ، علينا بتناول ما توفر من العشاء ، وعندما يطلق النفير نداء الانصراف الى الرقاد ، المعتاد ، احزموا امتعتكم . وعند نداء النفير الثاني ، ضعوها على الدواب النافلة . وعند اطلاق النداء الثالث ، التفوا الذين يقتادونكم ، على ان تكون الدواب بجانب النهر ، والمشاة الثقيلة خارجها » .

عند تسلم هذه الايعازات ، مضى القادة وضباط المئة ونفذوها . ومنذئذ ، اضحت القيادة لكليرخوس ، وغدوا هم مرؤوسيه . ولم يحصل هذا نتيجة انتخاب ، بل لوثوقهم انه الرجل الوحيد الذي يمتلك النوع الصحيح من عقلية القائد ، بينما كان الآخرون غير مجربين .

بعدئذ ، عندما حلت الدجنة ، فر (ميلتوسولس) التراقي نحو العاهل ، مستصحبا اربعين من افذاذ الفرسان الذين كانوا لديه ، ما يقرب من ثلاثمئة راجل تراقي . اما الباقون ، فسار بهم كليرخوس حسب تعليماته ، ولبثوا حتى ادركوا محطة التوقف الاولى حوالي منتصف الليل ، حيث اريوس وعسكره . لقد اوقف القادة وضباط المئة اليونانيون رجالهم في نسق حربي ، وانطلقوا ليواجهوا اريوس . ثم ان اليونانيين من ناحية ، واريوس مع اهم ضباطه من الناحية الاخرى ، اقسموا اليمين على عدم خيانة احدهم الآخر ، وعلى ان يكونوا حلفاء صادقين . كما ان رجال الفرس ادوا قسما آخر على اقتياد اليونانيين للعودة بهم دون اي خداع . لقد سبقت هذين القسمين ، تضحية ثور وخنزير وكبش على مجن . فغمس اليونانيون في الدم حساما ، والفرس حربة .

وعندما تم التعاهد على ذلك ، قال كليرخوس : « والآن يا اريوس ، ما دمنا سالكين نفس السبيل ، قل لنا ما وجهة نظرك بشان الطريق التي ستسلك . هل سنعود من حيث اتينا ام ان في ذهنك مسلكا افضل ؟ » .

اجاب اريوس : « اذا كنا سنسلك في الاوبة طريق مجيئنا ، هلكنا جميعا من الجوع ، فقد امسينا الآن من غير مؤن . وحتى اثناء طريقنا الى هاهنا ، عجزنا عن استحصال اي شيء من البلاد التي اجتزنا خلال سبعة عشر يوما ـ اذ لو كان ثمة شيء ما ، لوجدناه اثناء توجهنا الى هنا . اننا الآن نرتئي الرجوع عن طريق اطول حقا ، لكن المؤن لن تعوزنا خلالها . ينبغي ان نجعل المراحل الاولى من مسيرنا ابعد ماتستطيع ، لنترك اقصى مسافة ممكنة ، تفصلنا عن جيش العاهل . ان تمكنا ، لاول وهلة ، من السير مسافة يومين او ثلاثة بعيدا عنه ، فسوف لن تتوفر للعاهل فرصة اخرى لادراكنا . انه لن يجازف بان يلاحقنا بقوة ضئيلة ، واذا سار بجيش جرار ، فلا يستطيع السير حثيثا . كما يحتمل ان تنقصه التجهيزات . هذا هو رايي حول الموقف » .

ان الامكانيات الوحيدة ، في هذه العملية الحربية ، كانت اما الابتعاد على غير مرأى من العدو ، او الانثناء عن مجال مطاردته . غير ان الحظ بات احسن دليل . اذ بطلوع النهار ، ساروا والشمس عن يمينهم ، مقدرين انهم مع صفو الشمس ، سيدركون القرى التي في بلاد بابل . ولم يخطئوا في هذا ، اذ بينما كان الوقت عصرا ، تخيلوا انهم يستطيعون مشاهدة فرسان العدو . فهرع اليونانيون السائرون بدون نظام الى اتخاذ مراكزهم . اما اريوس الذي كان في عجلته ، لاصابته بجرح ، فترجل ووضع عليه درعه كما فعل الآخرون الذين معه . لكنما اذ كانوا يتدججون بالسلاح ، عادت طليعة من الكشافة ، ارسلت للاستطلاع ، وافادت انهم ليسوا فرسانا بل دواب نقل الامتعة ، ترعى . فادرك كل فرد في الحال ان معسكر العاهل في موضع قريب ، وفي الحقيقة كان الدخان يشاهد في القرى غير البعيدة كثيرا . لكن كليرخوس لم يقد رجاله قدما ليغيروا على العدو ، لعلمه ان التعب قد انهكهم ، وانهم لم يتناولوا وجبة طعام . كما ان الوقت كان متاخرا الآن . ومن ناحية اخرى ، اهتم الا يدع مجالا للانطباع عنه انه كان لائذا بالفرار ، فلم يغير وجهته ، بل استمر في السير قدما . ومع غروب الشمس ، خيم مع الطليعة في اقرب قرية ، حيث ان جيش العاهل قد اقتلع من المنازل حتى ابوابها ونوافذها الخشبية .

مع ذلك ، تمكنت الطليعة من تهيئة مخيم نوعا ما ، لكن الذين وصلوا فيما بعد اثناء العتمة ، خيموا اني وجدوا انفسهم ، واحدثوا الكثير من الجلبة اثناء مناداتهم بعضهم بعضا حتى بات في مقدور العدو ان يسمعهم . فنجم عن ذلك ، ان الاعداء الاقربين قروا فعلا من خيامهم . لقد اتضح هذا في اليوم التالي ، اذ لم يبق ، ضمن مدى البصر ، اية دابة نقل الامتعة كما انه لم يُرَ اي معسكر او خان فيما جاور . كما ظهر ان العاهل ذاته قد اصيب بالذعر عند دنو اليونانيين ، والحقيقة انه كشف عن ذلك بجلاء فيما فعل في اليوم التالي .

لكن اليونانيين انفسهم ، قاسوا من ذعر مباغت ، داهمهم ليلا ، فحدث من الضجيج والفوضاء ما يتوقع الفرد عندما تسود حال من الفزع . بيد ان كليرخوس اوعز الى (توليدس) الايلي(٦٤) الذي اتفق ان كان معه ، وكان احسن مناد في زمانه ، ان يامر بالصمت ثم بالمناداة : « يعلن القادة ان الرجل الذي ياتي بمعلومات حول الذي سمح بانطلاق حماره بين الاسلحة ، سيمنح عليه بوزنة فضة(٦٥) . فعندما وعى الجنود هذا النداء ، اطمانوا ان ليس للذعر مبرر ، وان القادة كانوا في مامن . وعند الفجر اوعز كليرخوس الى اليونانيين بجعل صفوفهم بنفس التشكيل الذي كانوا عليه اثناء المعركة .

ان ما ذكرت آنفا حول ذعر العاهل عند دنو اليونانيين ، قد ثبت بما جرى فيما بعد . فمع انه في اليوم المنصرم ، اوفد من يامر الاغريق بتسليم اسلحتهم ، لكنه الان انفذ ، مع بزوغ الشمس ، مخبرين لبحث الشروط .

---

(٦٤) نسبة الى Elea وهي من مستعمرات الاغريق في جنوبي ايطاليا المسماة ايضا Graecia Magna

(٦٥) وزنة الفضة تعادل (٢٥٠) او (٢٤٠) جنيها .

قدم هؤلاء المخبرون الى الخضراء في المقدمة ، وطلبوا مواجهة القادة ، فابلغ الخضراء تلك الرسالة . فقال لهم كليرخوس ، وهو حينذاك يفتش المفارز ، ان يخبروا الموفدين بالانتظار ، ريثما يسنح له الوقت . ثم جعل العسكر حسب تشكيل ، بدا زاهيا للناظر ـ فيلق مرصوص من اية ناحية شوهد ، دونما فرد مجرد من السلاح . ثم استدعى كليرخوس المخبرين ، وتقدم بنفسه نحو الامام ، بصحبة احسن جنوده فيافة وسلاحا ، واخبر القادة الآخرين أن يحلوا حلوه . وعندما وصل الى المخبرين ، استفهمهم حاجتهم ، فاجابوا انهم قد قدموا ليبحثوا الشروط ، وان لديهم من التخويل ما يكفي لتبليغ اليونانيين رغبات العاهل ، او ابلاغ العاهل برغبات اليونانيين .

فقال كليرخوس : « اذن تستطيعون ابلاغه بهذا : سينبغي ان نخوض الهيجاء اولا . لا نملك شيئا للفطور ، وما من فرد سيجرأ على ان يحادث اليونانيين بشأن الشروط حتى يزودهم بالفطور » .

عند سماع ذلك ، انطلق المخبرون بخيولهم ، وآبوا مسرعين فاتضح ان العاهل ، او غيره ممن قد عهد اليه في هذه المهمة ، كان في موقع قريب . فافادوا ان العاهل عد قول كليرخوس معقولا ، ولذا فقد استصحبوا مرشدين ، يرشدونهم الى موضع يستطيعون فيه الحصول على الذخائر ، ان تم الاتفاق على الشروط .

واستفهم كليرخوس ان كانت الهدنة ستسري فقط على الذين ذهبوا وعادوا ، ام على كل فرد كذلك . فقالوا : « ان الهدنة تنطبق على كل فرد ، وستكون نافذة المفعول حتى يتبلغ العاهل برسالتك » .

عندئذ ، سألهم كليرخوس ان ينسحبوا ، وتداول المسألة مع الآخرين . لقد كانت الفكرة ، عامة ، تحبذ عقد الهدنة في الحال ، ثم الذهاب بيسر للحصول على الذخيرة . قال كليرخوس : « تلك هي فكرتي الخاصة كذلك . لكني لا اشاء اعطاء الجواب حالا . سأعمد الوقت حتى يتبادر الى المخبرين الوجل اننا قد نجمع لا على الهدنة » . بيد انه اضاف : « يخيل الي ان جنودنا كذلك سيعتريهم الوجل مثلهم تماما » .

ولما حسب ان الوقت الموائم قد حان ، اجاب انه سيعقد الهدنة ، واخبرهم ان يرشدوا الى حيث المؤن في الحال . ففعلوا ذلك ، لكن كليرخوس ، بالرغم من عقد الهدنة ، سار مع الجيش بنظام حربي ، واقتاد المؤخرة بنفسه . فاعترضتهم قنوات وترع مغمورة بالمياه الى حد تعذر عليهم اجتيازها من غير جسور . بيد انهم وضعوا المعبرات باستخدام سيقان النخيل والقطاع اخرى .

هنا تيسرت فرصة حسنة لمشاهدة الكيفية التي بها قاد كليرخوس رجاله ، بحربته في يسراه ، وقناته في يمناه . اذا ظن تهاونا من اي فرد من الرجال في عمل ما قد اوكل اليهم ، التقط الرجل المتهاون وبغزه . وفي ذات الحين ، طمس في الوحل ، وساهم في الاعانة بيده ، وبلا خجل كل فرد من عدم الاشتغال معه بجد . ان الذين اختيروا للمهمة ، كانوا ممن ناهزوا سن الثلاثين ، ولكن عندما لاحظوا كليرخوس يعمل فيها جادا ، انضم اليه من هم اكبر سنا كذلك . كان كليرخوس اكثرهم ذفافا لارتيابه ان القنوات ما كانت طافحة بالمياه الى هذا القدر دائما ، لان اوان ارواء السهل لم يكن في ذلك الفصل من السنة . فارتاب ان العاهل قد غمر السهل بالماء ، وغايته من ذلك هي ان اليونانيين قد يحصل لديهم الظن بوجود اخطار عديدة تجابههم في طريقهم حتى في هذا الحين .

وبعد التقدم ، وصلوا القرى حيث قال لهم الادلاء انهم يستطيعون الحصول على المؤن . فكانت الظلال مبلولة بوفرة وكذلك الصهباء المصنوعة من التمر ، وشراب حامض معمول من التمر المطبوخ . اما التمر ذاته ، فالصنف الذي يراه الشخص في اليونان ، كان يعزل جانبا للخدم ، بينما الانواع المخصصة للسادة ، كانت فاكهة منتقاة ، كبيرة الحجم ، رائقة المنظر ، الوانها كالعنبر تماما ، واعتبادوا تجفيف بعضها وحفظها كحلويات . وكان ثمة مشروب آخر ، حلو المذاق(٦٦) ، لكنه قد يصيب شاربه بالدوار . ولاول مرة ، هنا كذلك ، اكل الجنود الجمار(٦٧) المستخرج من قلب النخلة ، وكان معظمهم مفتونين جدا بمظهره ومذاقه اللذيذ الغريب ، ولو ان متناوله كان ، كذلك ، شديد التعرض للاصابة بالصداع . وكل نخلة ، استخرج منها الجمار ، ذبلت نهائيا .

فاقاموا هنا ثلاثة ايام ، ثم جاء بصفة رسل من لدن العاهل : تيسافرنوس وصهر العاهل وثلاثة آخرون من الفرس ، مع جملة من العبيد ليقفوا على خدمتهم .

فذهب القادة اليونانيون لاستقبالهم ، واستهل تيسافرنوس المباحثات بالكلام على النحو التالي بوساطة مترجم : « اني ذاتيا ، اصدقائي الاغريق ، اعيش متاخما حدود اليونان ، وعندما رايت انكم امسيتم في مثل هذا الوضع الحرج للغاية ، اعتبرتها فرصة موفقة لي ان تمكنت باية وسيلة من اقناع العاهل بقبول التماسي بان اعيدكم سالمين الى بلادكم بالذات . انه صنيعا ساحمد عليه منكم ومن بقية اليونانيين . فاعتقادا مني بذلك ، رفعت رجائي الى العاهل ، وان من الصواب والملائم له ان يمنحني هذا المعروف ، لاني اول من انباه بزحف كورش عليه ، وعندما جلبت النبأ ، استصحبت العساكر ، كما اني الوحيد الذي لم ينهزم من بين الذين جابهوا اليونانيين في المعركة بل على النقيض ، اخترقتهم واتصلت بالعاهل عندما وصل معسكركم غب مقتل كورش ، وبعد ذلك ، طاردت جيش كورش الفارسي برفقة هؤلاء الرجال الذين معي حاليا ، وهم اولى اصدقاء العاهل . حينذاك ، وعدني العاهل النظر في مطلبي ، وفي ذات الحين ، امرني بالتوجه اليكم لاستوضحكم الغاية من زحفكم عليه . اني انصحكم باعطاء رد معقول ، كي استطيع ، بسهولة اكثر ، استحصال كل منفعة اقدر عليها من اجلكم » .

عند ذلك ، انسحب اليونانيون ، وتشاوروا فيما ابداه . فاجابوا بلسان ناطقهم كليرخوس : « لم نات ، لاول وهلة ، سوية بقصد محاربة العاهل ، وما كنا بعدئذ زاحفين على العاهل لقد كانت الحال ، بالاحرى ، كما تعلم حق العلم ، ان كورش ظل يختلق لنا الاعذار المختلفة للزحف بنية الامساك بك بمنأى عن جندك ، فيحملنا على القدوم الى هنا . بيد اننا لما لا حظنا انه غدا في وضع خطر ، شعرنا بالخجل امام السماء وتجاه اعين الملا ان نخونه . اما الان وقد قضى كورش نحبه ، فلسنا منازعين العاهل امبراطوريته ، وليس من باعث يستوجب رغبتنا

---

(٦٦) يصعب التكهن بنوع الشراب المقصود لوجود اشربة عديدة قديما منها شراب البطيخ المسكر مثلا وغيره كثير . ولعله يقصد الدبس الحلو الذي هو عصير التمر .

(٦٧) لقد استعمل الناقل الى الانكليزية كلمة (Cabbage) التي تعني (اللهانة) بلغة العراق والكرنب او الملفوف بلغة سورية ، ليدل بها على كلمة (جمار) وهي قلب النخلة والمدلول الصحيح الانكليزي لها هو (Spadix)

في الحاق الضرر ببلاده ، او في قتله . ان رغبتنا الاوبة الى الوطن ، شريطة الا يعاكسنا احد . أما اذا اساء احد معاملتنا ، فاننا سنبذل كل ما في وسعنا ، بعون الآلهة لاقصائه عنا . ومن جهة اخرى ، ان كان ثمة من يسدي الينا العون ، فسنعمل حتما ، غاية جهدنا ، لمنحه نفس المقدار من المساعدة تماما » .

ذلك ما قال كليرخوس . لقد اصغى اليه تيسافرنوس ، وقال : « سانقل رسالتك الى العاهل ، ثم اعود اليك برده . اننا نعتبر الهدنة سارية المفعول حتى اعود ، وسنتيح لكم الفرص لابتياع الطعام » .

في اليوم التالي ، لم يعد تيسافرنوس ، فشعر اليونانيون ببعض القلق ، لكنه جاء في اليوم الثالث ، وقال انه قد وصل بعد فلاحه في اقناع العاهل أن يسند اليه مهمة انقاذ اليونانيين ـ بالرغم من وجود العديدين الذين خالفوه ، قائلين : « ليس من الصواب ان يسمح العاهل بنجاة الذين زحفوا عليه ، لذا في مقدوركم قبول ضماننا . اننا نعد أن نيسر لكم ارشادا مامونا عبر بلادنا ، وان نعيدكم الى اليونان من غير خداع ، ونتيح لكم فرصا لتبتاعوا الطعام ، وعند تعذر ذلك ، نسمح لكم باخذ مؤنكم من الريف . ومن ناحيتكم ، عليكم ان تؤدوا لنا القسم وتعدون انكم ستسيرون وكانكم في قطر صديق ، وان اخفقنا في اتاحة الفرصة لكم ان تبتاعوا المؤن ، فستاخذون طعامكم وشرابكم من غير احداث ضرر ، وان اتحنا لكم فرصة ، فستدفعون الثمن ما تحصلون عليه من الميرة » .

لقد اتفق على هذا ، وحلف اليمين . فعند كل من تيسافرنوس وصهر العاهل يمينه نحو القادة والرؤساء اليونانيين ، وتصافحا معهم . بعد ذلك ، قال تيسافرنوس : « والآن ساعود الى العاهل . ساقفل راجعا حال فراغي من انجاز ما يجب ، وانا بكامل الاهبة لمرافقتكم في الاوبة الى اليونان ، والرجوع بنفسي الى محافظتي » .

بعد ذلك ، انتظر اليونانيون ، وعسكر(٦٨) اريوس رجعة تيسافرنوس مدة نيفت على عشرين يوما ، وكانوا قد عسكروا متلاصقين . اثناء هذه الفترة ، قدم اشقاء اريوس واقرباء آخرون لرؤيته ، وجاء عداهم من الفرس لزيارة اصدقائه . وقد ادلوا ببيان امور مشجعة ، وجلبوا الى بعض الافراد ضمانات من العاهل ، انه لا يحمل نحوهم اية نية سيئة لانضوائهم تحت لواء كورش ضده ، او لاي شيء قد حدث سابقا .

وبان بعد هذه المحادثات ان جماعة اريوس غدوا اقل اهتماما باليونانيين ، وكان هذا باعثا آخر لتمقتهم غالبية اليونانيين . والحقيقة ، لقد قصد الجنود كليرخوس والقادة الآخرين ، وقالوا : « علام انتظارنا ؟ اليس واضحا ان العاهل سيفعل اي شيء ليبيدنا ، كي يجعل بقية اليونانيين يخشون المسير ، كما فعلنا ، ضد العاهل العظيم ؟ انه الان بسبب تشتت جيشه ، ولفايات عدة ، يشجعنا على الكوث حيث نحن ، لكنه سيهاجمنا حتما حالما تتجمع قواته ثانية . أم يجوز انه يحفر الخنادق،ويقيم القلاع في مكان ما لجعل طريقنا متعذر الاجتياز . انه حتما لا يرتضي ، اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، رجوعنا الى اليونان لنسرد قصتنا اننا ، بضآلة عددنا ، قهرنا العاهل عند أبواب جوسقه ، ثم عدنا الى الوطن سالمين ، جاعلين من شخصه اضحوكة » .

(٦٨) كلمة (عسكر) زيادة من المعرب للايضاح اذ أن النص الانكليزي يذكر « اليونانيون واريوس » .

فرد كليرخوس على الذين افصحوا عن ذلك ، بالقول : « اني اشعر عين شعوركم تماما . ومن جهة اخرى ، اعتبر لو ذهبنا الان ، لعد عملنا اطلان الحرب ونقض الهدنة . ان اول شيء سيعقب ذلك هو ان ما من احد سيتيح لنا ابتياع المؤن او اي مجال لاطعام انفسنا . ثم ، لن يتوفر لنا الدليل ليدلنا على الطريق . في نفس الوقت ، ان فعلنا كما تقترحون ، سيتخلى عنا اريوس في الحال ، فتغدو النتيجة اننا سوف لا نملك صديقا واحدا . وعلى النقيض من ذلك ، سيمسي اصحابنا سابقا خصوما . لا اعلم ان كنا سنجتاز انهارا اخرى ، لكننا نعرف أن من المتعذر عبور الفرات مع مواجهة مقاومة العدو . ثم ، ليس لدينا الفرسان اذا نشبت معركة ، بينما فرسان العاهل ، اعداد هائلة واكثر اسلحته مضاء . لذا ان احرزنا نصرا ، صعب علينا قتل اي فرد من اعدائنا ، بينما اذا قهرنا ، فلن ينجو منا احد . ان كان العاهل يروم تحطيمنا ، فلا علم لدي ـ وهو يمتلك كل هذه المزايا ـ بالداعي لتاديته القسم ، وتبادل يمين الصداقة ، فحنث وجعل ضماناته عديمة القيمة في عيون الاغريق والفرس » . كثيرا ما تعود كليرخوس هذا الضرب من الجدال .

في غضون ذلك ، وصل تيسافرنوس بجيشه ، ونيته ـ ظاهرا ـ الاوبة الى الوطن . كما جاء اورونتاس مع عسكره مصطحبا ابنة العاهل ، قرينة له . فساروا من ثم قدما ، وتيسافرنوس يدلهم الطريق ويتيح الفرص لابتياع الميرة . كما ان اريوس سار مع جيش كورش الفارسي بمعية تيسافرنوس واورونتاس وعسكر معهما . فتطلع اليونانيون اليهم بارتياب ، وساروا مستقلين اثناء الطريق ، مستخدمين مرشديهم الخاصين بهم ، وعسكر الجيشان تفصلهما مسافة ثلاثة اميال على الاقل دائما . وراقب كل جانب الاخر كانهما متعاديان ، فنجم عن ذلك، بطبيعة الحال ، مزيد من الريبة . وفي بعض الاحيان ، عندما كانوا يحتطبون في نفس الموضع ، او يجلبون العليق وما شابه ، حدثت المشاجرات بينهم ، وهذا ايضا ، يستثير الضغينة طبعا .

بعد مسيرة ثلاثة ايام ، وصلوا السور المادي ، واجتازوه نحو الطرف الاخر . كان ذلك السور مصنوعا من الطابوق الذي يتخلل القار طبقاته ، وكان سمكه عشرين قدما وارتفاعه مئة قدم وقيل ان طوله يمتد نحو ستين ميلا . انه جد قريب من بابل(٦٩).

اعقب ذلك مسيرة (٢٤) ميلا خلال يومين ، عبروا اثناءها ترعتين ، احداهما فوق جسر ثابت والاخرى فوق جسر عائم على سبعة قوارب . كان ماء الترعة يرد من دجلة ، ومنها تتفرع قنوات تمتد الى اطراف البلاد ، عريضة في البدئة ، ثم تضيق حتى تغدو في النهاية كالمجاري التي عندنا في حقول الدخن في اليونان .

ثم جاءوا دجلة حيث قامت بقربه مدينة واسعة كثيفة السكان ، تدعى (سيتاس)(٧٠) ، تبعد عن النهر ميلا ونصف

(٦٩) من كلام (زينوفون) يبدو أن السور المادي لا يبعد كثيرا عن (بابل) ـ اي مسيرة يوم أو اقل ، بينما يذهب الاستاذان طه باقر وفؤاد سفر الى ان موقع السور المذكور شمالي (بلد) وجنوبي (اصطبلات) . ولذلك أرجح أن شطرا منه قد اندهم . او أن ما ذكره (زينوفون) ليس سوى سد خزان نبوخذنصر .

(٧٠) Sittace ـ اغلب الظن انها (المدائن) التي يقوم بحذائها طاق كسرى المشهور واطلالها حاليا قريبة جدا من فضاء سلمان پاك المطلة على دجلة او بالاحرى موضع

الميل . لقد عسكر اليونانيون بجوار المدينة قرب حديقة شاسعة مكتظة بجميع اصناف الشجر . اما الجيش الوطني ، فقد اجتاز دجلة ولم يعد له اثر .

وبعد العشاء ، عندما اتفق ان كان (بروكسينوس) و (زينوفون) ماشيين امام الموضع الذي كدست عنده الاسلحة، قدم رجل يستفهم الحراس عن المكان الذي يستطيع فيه العثور على بروكسينوس وكليرخوس . لم يستفسر عن (مينون) مع انه قدم من قبل صديق (مينون) : آريوس . عندئذ قال بروكسينوس : « انا هو من تطلب » . فتكلم الرجل قائلا : « لقد بعثت من لدن آريوس وارتاوزوس المخلصين لكورش ، وهما صديقاكم . انهما يستحثانكم لتكونوا على يقظة من هجوم يشنه الجيش الوطني اثناء الليل . ثمة قوة هائلة في الحديقة المجاورة . كما يستحثانكم على اقامة حراسة على الجسر فوق دجلة ، لان تيسافرنوس ينوي ، ان استطاع ، تحطيمه ليلا ، كي تعجزوا عن عبوره ، فتعزلوا بين النهر والقناة » .

عندما وعى بروكسينوس وزينوفون هذا ، اخذا الرجل الى كليرخوس واخبراه بما افاد . فاضطرب كليرخوس وانزعج كثيرا عندما سمع الحكاية . لكن شابا حاضرا هناك ، قال بعد تمعن قليل : ثمة تناقض في هاتين الخطتين : شن الهجوم وتحطيم الجسر . فجلي اما ان يكون هذا الهجوم ظافرا ام فاشلا . فان كان ظافرا ، ما قصدهم من هدم الجسر ؟ سوف لن تتوفر لدينا فرصة النجاة حتى لو تيسرت الجسور العديدة . ولنفرض من ناحية اخرى انه فاشل ، عندئذ اذا دمر الجسر ، فان تتوفر لديهم وسيلة النجاة . فضلا عن ذلك ، اذا هدم الجسر ، استحال على اي فرد من اصحابهم كافة ، في الطرف الآخر ، ان يخف الى نجدتهم » .

لقد اصغى كليرخوس الى ذلك ، واستعلم المخبر عن فسحة الارض الكائنة بين دجلة والقناة . فاجاب : « انها كبيرة وفيها ضياع وعدد من المدن الكبيرة » .

عند ذلك اجمعوا ان للفرس غرضا خاصا من ارسال هذا الرجل . فهم خشوا ان يلجا اليونانيون الى تجزئة الجسر الى اوصال ، فيمكثوا في الجزيرة ، وبذا يشكل كل من دجلة والقناة خطي دفاع على الجانبين . انهم يستطيعون الحصول على التجهيزات من الصقع الخصيب المترامي ، الآهل بالناس العاملين . وبالتالي يغدو وضعهم كملجا لاي فرد شاء العمل ضد العاهل .

وبعد توصلهم الى هذا الاستنتاج ، ذهبوا للرقاد . غير انهم اقاموا الحراسة فوق الجسر ، لكن الحرس انبأ بعدم حدوث هجوم من اي اتجاه ، ولم يدن من الجسر اي نفر من العدو .

مع بزوغ الفجر ، عبروا الجسر المشيد من سبعة وثلاثين قاربا ، واتخطوا جميع الاحتياطات الممكنة ، اذ ان بعض اليونانيين الذين في خدمة تيسافرنوس افادوا ان الفرس مبيتين الهجوم اثناء اجتياز اليونانيين . بيد ان هذا الاخبار كان عاريا من الصحة ، ولو ان (جلوس) وآخرين برزوا للعيان اثناء عبورهم للتثبت من اجتيازهم النهر حقيقة . فعندما رآهم فاعلين ذلك ، انطلق راكبا .

تلا ذلك مسيرة (٦٠) ميلا في بحر اربعة ايام ، فوصلوا نهر (فيسكوس)(٧١) الذي عرضه (١٠٠) قدم وفوقه جسر . كانت هنا مدينة عظيمة تدعى (اوبس)(٧٢) حيث التقى بالقرب منها شقيق كورش وارطحششت غير الشرعي باليونانيين . وكان يقود جيشا لجبا من (شوشه)(٧٣) و (اكباتانا)(٧٤) للقتال في نصرة العاهل ظاهرا . وعند مرور اليونانيين ، اوقف جيشه وراقبهم . لقد قاد كليرخوس رجاله قدما بشكل اثنين اثنين ، جنبا لجنب ، يسيرهم ويوقفهم عند مراحل . وعند توقف الطليعة ، كان الصف بطوله يتوقف طبعا ، حتى ان اليونانيين انفسهم حسبوا ان جيشهم كان جرارا للغاية ، بينما كان الفرس في اقصى العجب لمنظرهم .

اعقب ذلك مسيرة (٩٠) ميلا خلال ستة ايام عبر الصحراء داخل (ميديا) ، فوصلوا الارياف العائدة الى (پاريزاتس) والدة كورش وارطحششت . ان تيسافرنوس ، بغية اهانة كورش ، اباحها لليونانيين لاخذ ما شاءوا منها ، خلا العبيد . كان هنالك الكثير من الظلال والضان واشياء اخرى ذات قيمة .

ثم تلت مسيرة (٦٠) ميلا خلال اربعة ايام عبر الصحراء تاركين دجلة على اليسار . في اليوم الاول للمسير ، لاحظوا

سلوقية (تلول عمر) وهذا هو نفس رأي المستشرق الجيكي موسيل في كتابه (الفرات الاوسط) ـ ص ٢٢٦ . وقا لالدكتور احمد سوسه في كتابه (وادي الفرات ومشروع سدة الهندية) ـ ص ٢٢ : « لقد اختلف العلماء في امر تعيين موقع مدينة سيتاس ، فظنه بعضهم في شمال بغداد وهؤلاء ممن يعتنقون النظرية القائلة بأن سور الميديين كان يقع شمالي بغداد ، وبينهم المستر (جيزني) الذي يميل الى الظن بانها كانت تقع في (الشريعة البيضاء) شمالي التاجي بقليل . والبعض الآخر ، ممن يرون أن سور الميديين كان يقع جنوب بغداد ، ظن أن موقع (سيتاس) يحتمل ان يكون في اماكن عدة جنوب بغداد . فالمستر (كروت) في كتابه (تاريخ اليونان) ـ الجزء التاسع ـ يرى أن مدينة سيتاس كانت تقع على بعد ثلاثة اميال من جنوب مدينة بغداد ، بينما نجد المستر (رولنسن) في كتابه (الممالك القديمة) ـ الجزء الاول ـ يميل الى تعيين موقع سيتاس على الضفة الشرقية من دجلة في مسافة تبعد (٣٣) ميلا من جنوب شرقي نهر ديالى . وهناك من يرى أن (تلول الدير) الواقعة على الضفة الشرقية من دجلة على بعد زهاء (٦٠) كم من جنوب مصب نهر ديالى هي عبارة عن اطلال سيتاس . وقد ذكر (سترابون) ان مدينة سيتاس تقع على الطريق بين بابل وسوسه وعلى بعد نحو (٥٠) ميلا من الاولى . ومهما يكن من امر ، فاننا نميل الى الاعتقاد بأن سيتاس كانت تقع في محل ما جنوب بغداد بالقرب من نهر دجلة » .

---

(٧١) Physcus ـ ارجح أنه نهر الادهم المسمى العظيم حاليا

(٧٢) Opis ـ المرجح انها (بلد) الحالية والاختلاف في تعيينها يعود الى الاختلاف في تعيين السور المادي وبحث هذا الموضوع طويل . راجع ص ١١ـ١٢ من كتاب (وادي الفرات ومشروع سدة الهندية) للدكتور احمد سوسة .

(٧٣) Susa ـ عاصمة الفرس قديما .

(٧٤) Ecbatana ـ هي مدينة (همدان) او (همذان) حاليا وعاصمة ميديا قديما ، اسست حوالي سنة (٧٠٠) ق.م .

مدينة كبيرة غنية تدعى (كايناي)(٧٥) مشيدة على الضفة الاخرى من النهر . لقد جلب سكان هذه المدينة ارفغة وجبنا ونبيذا ، عابرين بها النهر فوق الاطواف(٧٦) المصنوعة من الجلود .

بعدئذ ، جاوزا نهر الزاب(٧٧) الذي كان عرضه (..) قدم ، فمكثوا هناك ثلاثة ايام ، وخلال هذه المدة ـ رغم استمرار الارتياب ـ لم تبد دلالة حقيقية على الغدر . لذا صمم كليرخوس على مواجهة تيسافرنوس والعمل ، غاية المستطاع ، لايقاف هذه الشكوك قبل ان تؤول الى خصومة سافرة . فانفذ فردا ينبيء انه شاء مواجهته ، فاستدعاه تيسافرنوس في الحال للمجيء . وعند اجتماعهما تكلم كليرخوس قائلا : « اني اعلم ، ياتيسافرنوس ، اننا قد اقسمنا اليمين ، وتبادلنا الضمانات الا يلحق احدنا الضرر بالآخر ، بيد اني الاحظ تراقب تحركاتنا وكاننا خصوم . فنحن اذ نلاحظ هذا ، ننظر اليكم بالمثل . عند تفحص الامور ، اعجز عن ايجاد الدليل انك تحاول الاضرار بنا ، واني لموقن تماما ـ بقدر ما يتعلق الامر بنا ـ اننا لا نفكر اصلا في مثل هذا ، لذا قررت ان ابحث القضايا معك ، لارى ان كنا نستطيع وضع حد لسوء الظن المتبادل هذا . فكما اعلم من حوادث وقعت في الماضي ، نتيجة لانباء مفتراة احيانا ، ولمجرد عامل الشك احيانا اخرى ، عند توجس اناس فزعا بعضهم من بعض ، ثم في خضم تشوفهم الى انزال الضربة اولا ، قبل حدوث اي شيء لهم ، قد الحقوا ضررا لا يرجى اصلاحه باولئك الذين لم يعتزموا ، ولا ارادوا اصلا ، ان يلحقوا بهم اي اذى مطلقا . فالتمست عندئذ ان سوء التفاهم ، من هذا القبيل ، يسير انهاؤه على افضل وجه بالاتصال الشخصي ، وابغي ان اوضح لك ان ليس لديك ما يبرر اساءتك الظن بنا . فاول واهم سبب هو ان قسمنا قدام الآلهة يمنعنا ان نصبح اعداء بعضنا لبعض . ان الرجل الذي يمتلك ضميرا يحتمل نبذ مثل هذه اليمين ، ليس بالشخص الذي اقدر على تهنئته ابدا . ان فردا ، هو عدو الآلهة ، لا ارى كيف يستطيع الافلات العاجل ، ولا موضعا يهرب اليه للنجاة ، ولا ما سيكتنفه من الظلمة ، ولا مكانا من القوة ما يحمله على اللجوء اليه . فجميع الاشياء في كل الاماكن معرضة للآلهة ، وطاقة الآلهة تشمل جميع الاشياء على حد سواء .

« هذا اذن ، اعتقادي عن الآلهة واليمين التي اقسمنا ـ تلك اليمين التي صيانة لها ، اودعناها ايدي الآلهة حينما تحالفنا على الصداقة . والآن عند بحث علاقتنا بالافراد ، اعتقد انك في هذا الظرف افضل ما نملك . بعونك كل طريق سهلة ، كل نهر ممكن العبور ، ولن يكون ثمة نقص في التجهيزات ، لكن بانعدام مساعدتك ، ستمسي رحلتنا باسرها في الظلام ، مازلنا لا نعلم عنها شيئا ، اذ سيغدو كل نهر عقبة شاقة ، وكل فئة من الخلق ستوحي الينا الخوف ، واكثر ما يرهب الاصقاع غير المأهولة ، حيث يدجر المرء في كل السبل .

« لو كنا من الجنون بان نقتلك ، ما الذي ستتوصل اليه غير القضاء على المحسن الينا ، ثم ينبغي ان نعادي العامل الذي سيكون بالمرصاد مع كامل قوته ليثار لك . وبقدر ما يخصني الامر ، استطيع ان اخبرك عن جميع المطامح العظيمة التي ساخسرها ان انا حاولت الاضرار بك . ان الباعث الذي رغبني ان يكون كورش صاحبي ، هو اعتقادي انه احسن معاصريه قاطبة من حيث القدرة على مساعدة الذين شاء مساعدتهم . اما الان ، فالاحظك تملك ولايات كورش وفواته ، كما تملك ما يعود اليك ، وقوة العامل التي ناهضت كورش بجانبك كذلك . فمع كل مكاسبك هذه ، من هو ذلك المعتوه الذي لا يود ان يغدو صاحبك ؟ كما اني سانبئك عن الباعث الذي يجعلني اعقد آمالا طيبة في رغبتك لتكون صاحبنا كذلك . اولا ، هناك (الميسيون)(٧٨) الذين ، كما اعلم ، يسببون لك الاضطراب ، وانا واثق ان في مقدوري اخضاعهم بالقوة التي امتلك حاليا . كما اعرف (البيزيديين) كذلك ، واعلم بوجود فئة من مثيري الشغب ، واعتقد ان في وسعي منع هؤلاء قاطبة من اقلاق راحة بالك باستمرار . واني لعالم بنقمتك على المصريين بصورة خاصة ، ولا ارى كيف يتسنى لك الحصول على قوة افضل مما في حوزتي الان لتعضدك في معاقبتهم . اجل ، وفيما يتعلق بالولايات على تخومك ، تستطيع ان شئت ان تغدو اجدى الاصدقاء ، او ان اثار احدهم الاضطراب ، استطعت ـ ونحن في عونك ـ ان تتصرف كحاكم بامره ، وسوف لن نخدمك لاجل مجرد الاجر ، بل من اجل الشكران المناسب الذي سنكنه لك لانك انقذت حياتنا . عندما افكر في كل هذا ، يبدو لي ان انعدام ثقتك بنا غير قابل للتصديق الى حد اود كثيرا معرفة اسم الرجل الذي له من المقدرة على الاقناع ما يجعلك تعتقد تآمرنا عليك » .

هذا ما قال كليرخوس . فاجاب تيسافرنوس قائلا : « اني ياكليرخوس في الحقيقة لمغتبط ان اسمع حديثك المعقول . انك بما تمتلك من المشاعر ، يتراءى لي انك لو كنت تفكر في ايذائي ، لكنت في الوقت عينه تتآمر على مصالحك الذاتية . اما الان فعليك ان تصغي بدورك كي تقتنع انك انت ايضا ستكون مخطئا لو خامرك اي نقص في الثقة بالعامل او بي .

« لو شئنا فعلا ابادتكم ، هل تعتقد ان الفرسان والمشاة تنقصنا ، ام النوع المناسب من المعدات التي نتمكن بها من اتلافكم دون تعرضنا لخطر ازهاق الارواح من جانبنا ؟ ام انك تحسب من الجائز عدم عثورنا على مبرر ملائم لهجومكم بموجبه ؟ تذكر الاصقاع الدلصة التي تخترقون بمشقة كبيرة حتى حينما يكون القاطنون مسالمين . تامل كل الجبال التي ينبغي ان تجتازوها ، والتي نستطيع احتلالها اولا ، فنجعل عبورها من المتعذر عليكم . تصور جميع الانهار حيث تستطيع اقتطاعكم الى مفارز ، فنشاغلكم ما شئنا من الوقت . وثمة انهار لاتستطيعون عبورها مطلقا الا اذا اجتلبناكم عبرها . وحتى لو فرضنا ان حظنا من ذلك كان الاسوا على طول هذه الجبهات ، فلك ان تتاكد ، على كل حال ، ان النار تفوق الظلال باسا ، واذا اضرمنا

---

(٧٥) Caenae التسمية يونانية معناها (المدينة الحديثة) والحديثة مدينة قديمة على دجلة غير التي على الفرات . وخارطة (تاريخ كلدو وآثور) للمطران ادي شير تبين وجود مدينة (شنا) الى الشمال من (بيجي) الحالية ، وربما هي كاياني .

(٧٦) الاطواف جمع (طوف) وهي قرب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض فيركب عليها في الماء .

(٧٧) Zapatas ـ اغلب الظن انه نهر الزاب الاعلى الكبير حاليا ، مع العلم ان المؤلف لم يات على ذكر (الزاب الاسفل الصغير مع انه قد اجتازه . وارجح ان هذه التسمية فارسية لان اليونانيين ، كما يقول المطران ادي شير في كتابه (تاريخ كلدو وآثور) ، يطلقون اسم (لوتوس) على الزاب الاعلى واسم (كابروس) على الزاب الاسفل .

(٧٨) القوم المنسوبون الى اقليم (ميسيا) غربي آسيا الصغرى .

النار في الظلال ، استطعنا اجتلاب المجاعة في المعركة القادمة عليكم ، فلا تستطيعون مكافحة ذلك لو اوتيتم كل الشجاعة في العالم . فمع جميع هذه الوسائل التي نملكها لشن الحرب عليكم ، وبدون ان تجر احداها اي خطر الينا ، كيف تستطيع التصور اننا من دونها جميعا سنختار الاسلوب الذي ينطوي على الشر في نظر الآلهة ، والعار في عيون الناس ؟ بين القانطين والذين لا حيلة لهم ، ومن لا يملكون اي مخرج ، فقط ، ستجد اناسا (وحتى آنذاك يتحتم ان يكونوا اوغادا) يرغبون في تامين غاياتهم عن سبيل تادية اليمين الغموس امام الآلهة ، ونكث العهود تجاه الناس . ليس ذا شاننا ياكليرخوس ، لسنا حمقى وبلها كهؤلاء .

« قد تسال ، مازلنا نملك الطاقة على ابادتكم ، لماذا لم نقدم على ذلك ؟ اسمح لي ان اقول لك ان المسؤول عن ذلك رغبتي في كسب ثقة اليونانيين ، واني من طريق اسدائهم الخير ، ابتغي الرجوع الى الساحل بمعاضدة جيش المرتزقة الذين اعتمدهم كورش اثناء مسيرته الداخلية لسبب واحد هو انه اعظاهم اجرهم . اما اوجه الاستفادة من مساعدتكم ، فقد ذكرت بعضها بنفسك ، واهمها ، مع ذلك ، لا تعدو علمي . اعني ان للعاهل وحده ان يضع التاج على راسه ، لكن واحدا غير العاهل بفضل معونتك ، ربما تيسر له ان يحوز التاج في قلبه » .

فطنه كليرخوس مخلصا فيما ينطق ، فقال : « اذن ، فاولئك الناس الذين يحاولون باغتراءاتهم جعلنا متعادين ، في حين نملك جميع مقومات الصداقة هذه ، الا يستحقون اسوا مصير يلحقهم ؟ » . فقال تيسافرنوس : « اجل . وان كنتم ، ايها القادة والرؤساء ، على استعداد للقدوم الي ، فساعلن جهارا اسماء الاشخاص الذين انباوني انكم كنتم تتآمرون علي وعلى عسكري » .

فقال كليرخوس : « سآتي بهم جميعا . وانا من ناحيتي ، سادلك من اين استقيت معلوماتي عنك » .

بعد هذه المحادثة ، تصرف تيسافرنوس بتودد جم نحو كليرخوس ، وحثه آنذاك على البقاء ، فجعله ضيف العشاء .

في اليوم التالي ، عند عودته الى المعسكر ، اوضح كليرخوس انه اعتبر كونه على غاية الوفاق مع تيسافرنوس ، وان اولئك اليونانيين الذين ثبت انهم كانوا يشيعون المفتريات ، تنبغي معاقبتهم كخونة وغير عابئين بالقضية اليونانية . لقد شك أن (مينون) بيث الاراجيف ، اذ بلغه ان مينون واريوس قد اجتمعا بتيسافرنوس ، وانه كان يعمل سرا لتشكيل حزب مناوىء ضده ، بقصد استمالة الجيش باكمله نحوه ، فيصبح صاحبا لتيسافرنوس . لقد ابتغى كليرخوس لذاته ولاء الجيش باسره ، وأراد القضاء المتذمرين عن سبيله .

لقد عارض بعض الجنود كليرخوس ، قائلين بعدم وجوب ذهاب الرؤساء والقادةكافة ، وبانه يتحتم الا يثقوا بتيسافرنوس لكن كليرخوس اصر بشدة حتى اقلع اخيرا في حمل خمسة قواد وعشرين رئيسا على المضي ، وانطلق معهم كذلك حوالي مئتين من الجنود الاخرين ، وكانهم يئنون ابتياع الاطمة .

فعندما بلغوا مدخل خيمة تيسافرنوس ، دعي القادة داخلا وهم : بروكسينوس البيوطي ، مينون الثسالي ، اجياس الاركادي ، كليرخوس الاسبرطي وسقراط الاشي . وانتظر ضباط المئة (الرؤساء) عند المدخل . بعد لحظات ، وباشارة واحدة ، قبض على من في الداخل ، وذبح من في الخارج . ثم انطلقت مغاوز من فرسان الفرس تعدو على الارض المنبسطة ، وقتلت جميع اليونانيين في طريقها ، عبيدا واحرارا على السواء . فانذهل اليونانيون اذ شاهدوا من معسكرهم مناورات الفرسان هذه ، وكانوا في ريبة مما كانوا فاعلين ، حتى نجا (نيكارخوس) الاركادي وجاءهم بجرح في معدته ، ماسكا امعاءه بيديه ، فانباهم عن كل ما وقع .

نتيجة لذلك ، هرع اليونانيون نحو السلاح . فساد رعب عام ، وتوقعوا زحف العدو عاجلا على المعسكر . بيد انهم لم ياتوا بكامل قوتهم ، بل كانوا : اريوس وارتاوزوس وميثريداتس ، وهم رجال كانوا غالبا موضع ثقة كورش . ان الترجمان الافريقي افاد انه لمح وميز شقيق تيسافرنوس ضمنهم كذلك . كما جاء معهم حوالي ثلاثمئة آخرون من الفرس وقد لبسوا الدروع .

وعندما دنوا من المعسكر ، طلبوا ان يبرز اليهم اي قائد او رئيس يوناني هناك كي يبلغوا رسالة من العاهل . وبعد اتخاذ كل الاحتياطات ، خرج نحوهم القائدان اليونانيان (كليئور الاوركوميني) و (سوفانيتوس الستيمفالي) ومضى معهما زينوفون الاثيني ليتحرى عما جرى لبروكسينوس . واتفق ان كان خريسوفوس خارج المعسكر مع فئة لجمع التجهيزات في قرية ما .

وعند وقوفهم على مسافة يمكن معها سماع بعضهم البعض ، قال اريوس : « ايها اليونانيون : وجد كليرخوس مذنبا في حنث اليمين ونقض الهدنة ، فنال استحقاقه وقضى . اما بروكسينوس ومينون ، بما انهما اخبرا عن تآمره ، فهما في غاية التكريم . اما انتم ، فالعاهل يطالبكم بالقاء السلاح ، اذ يقول انها عائديته ، لانها كانت ملك كورش الذي كان خادمه » .

فكان رد اليونانيين على ذلك بلسان كليئور : « اريوس ، بائذلا كله ، وانتم يامن كنتم اصحاب كورش : الا تشعرون بالخجل امام الآلهة والبرايا ؟ لقد اقسمتم ان اصحابكم وخصومكم سيكونون نفس اصحابنا وخصومنا ، ثم غدرتم بنا مع ذاك الملحد والمجرم تيسافرنوس . لقد قتلتم عين الناس الذين اقسمتم معهم اليمين ، والآن بعد ان خذلتم بقيتنا ، تاتون ضدنا مع اعدائنا » .

فقال اريوس : « الحقيقة ، لقد ثبت اولا ان كليرخوس كان يدبر مكيدة ضد تيسافرنوس واورونتاس ونحن الذين معهما جميعا » .

فرد زينوفون على ذلك قائلا : « اذن ، بقدر ما يتعلق الامر بكليرخوس ، لقد نال ما استحق اذا هو حنث اليمين ، ونقض الهدنة . انه لحق ان يمحق الخائنون . اما بروكسينوس ومينون ، اذ انهما محسنان اليكم ، وقائدانا ، فابعثوا بهما الينا . اذ يبدو جليا ، لكونهما صديقي الطرفين ، انهما سيحاولان اسداء افضل النصح من أجل مصالحكم ومصالحنا » .

لقد استغرق الفرس وقتا طويلا للتباحث في ذلك ، ثم غادروا دون ان يبدوا اي رد على الاقتراح .

ان القادة الذين اسروا على هذا النحو ، اخذوا الى العاهل ، وضربت اعناقهم . كان كليرخوس ، احدهم ، جنديا حقيقيا متحمسا للحرب اكثر من المعتاد ، كما سلم بذلك كل الذين تهيئ لهم ان يتكلموا عنه بعد خبرة . ويتجلى هذا من هذه الحقيقة : أبان حرب اسبرطة مع اثينا ، ظل هو في اليونان ، لكنه بعد الصلح ، اقنع السلطة الوطنية ان

(الثراشيين) كانوا يقومون باعمال عدائية تجاه اليونانيين ، وغب ان وجد سبيله ـ الى حد ما ـ نحو الحكام ، ابحر من الوطن ليشن الحرب على الثراشيين شماليّ (شيرسونيز)(٧٩) و (يرنثوس)(٨٠) . بيد ان الحكام ، بعد اقلاعه ، عدلوا عن رايهم لسبب ما ، وحاولوا حمله على الرجوع من البرزخ ، لكنه لم يعد اذ ذاك يرضخ لهم ، بل مخر نحو (هيليزيونت)(٨١) . نتيجة لذلك ، حكمت عليه السلطات الاسپرطية بالموت لعصيانه. وهو كمنفي ، قصد كورش ، وقد كتبت في موضع آخر(٨٢) حول الاراء التي ابداها لكسب عطف كورش . فوهبه كورش عشرة آلاف جنيه ، لم يحيا بعد استلامها حياة رخية ، بل انفقها في انشاء جيش . بهذا الجيش،شن الحرب على الثراشيين ودحرهم في معركة ضارية ، ومنذئذ غزا وخرب ديارهم ، واستمر على محاربتهم حتى احتاج كورش الى جيشه ، فغادر (تراشيا)(٨٣) بقصد الاسهام في حرب اخرى بمعية كورش .

يلوح لي ان هكذا ينبغي ان يكون سجل امريء مخصص للحرب . كان في مقدوره العيش بسلام دون تعرضه للمثالب او اي سوء لكنه آثر خوض الوغى . كان في استطاعته ان يحيا برخاء ، لكنه فضل حياة خشنة تصحبها الحرب . لقد تسنت له حيازة المال والامان ، لكنه تخير الاقلال من المال ، الذي احرزه ، بالانهماك في الحرب . فقد كان ، في الحقيقة ، يهوى انفاق المال لاغراض الحرب ، تماما كمن ينفقه في شؤون الحب ام اية لذة اخرى .

كل هذا يدل الى اي مدى كان قد كرس ذاته للحرب . اما خصاله العالية كجندي ، فتبرز في الحقائق التي تشير انه كان مولعا بالمجازفة ، ومتاهبا لقيادة الحملة على العدو نهارا ام ليلا وانه عندما الم به الظرف المريك ، كان يتمالك صوابه ، كما يسلم بذلك كل من يوجد معه اينما كان . وقيل انه حاز جميع مؤهلات القيادة التي يمكن توفرها في رجل من طرازه . كان يملك مقدرة فائقة على تنظيم الوسائل التي تمكن الجيش من الحصول على الميرة وضمان توفرها ، كما كان ذا قدرة جيدة على ان يوحي الى من معه ان كليخوس رجل يجب ان يطاع . لقد حقق هذه النتائج بصلابته . لقد كان ذا مظهر رادع وصوت اجش . كانت عقوباته صارمة ، وتفرض احيانا اثناء الغيظ ، حتى انه بالذات كان يندم احيانا على ما بدر منه . لقد كان العقاب عنده بمثابة قاعدة ، لانه كان يؤمن ان جيشا بلانظام لا يصلح لشيء . والحقيقة ، لقد عرف انه القائل ان على الجندي ان يرهب قائده اكثر من العدو ، اذا اريد له ان يصبح قادرا على الاحتفاظ باليقظة الوافية ، وان يمسك عن الحاق الاذى بجانبه ، او ان يدخل المعمعة دون تراجع . فحصل من ذلك ، ان الجنود في المواقف المحرجة كانوا يمنحونه ثقة تامة ، ولم يتمنوا افضل منه . قالوا ان نظرته المانعة ، في تلك الاحيان ، كانت تلوح بهيجة حتما ، وصلابته ثقة في وجه الخصم ، فهي بعد ليست صلابة عندهم ، بل شيئا آخر يحطهم على الشعور بالطمانينة . ومن ناحية اخرى ، عند زوال الخطر ، وسنوح فرصة الذهاب تحت خدمة غيره ، هجره العديدون ، اذ لتجرده من اي جاذب نحو شخصه ، كان صلبا وشرسا دائما ، وبذا كانت علاقاته بجنوده كتلك التي بين التلاميذ ومعلم المدرسة .

وهكذا بات لايملك التابعين بدافع الصحبة أو الشعور الطيب نحوه . ومن ناحية اخرى ، لقد فرض الطاعة التامة على جميع الذين تحت سلطته في مدنهم ، أم العاملين معه بباعث من الفاقة او تحت وطاة قاهر آخر . ثم حال شروعهم في احراز النصر برفقته ، استطاع الفرد ادراك اهمية العوامل التي جعلت من رجاله جنودا اكفاء . لقد تميزوا بالثبات في وجه العدو ، وكانوا منظمين خشية عقوباته . فهو كقائد ، اذن ، كان على هذه الشاكلة ، لكنه ـ كما قيل ـ لم يرغب كثيرا في الخدمة تحت امرة الآخرين . كانت سنه اثناء وفاته حوالي خمسين سنة .

اما پروكسينوس البيوطي ، فشاء منذ صباه المبكر ان رجلا يغدو رجلا قادرا على انجاز الاعمال العظيمة . وبهذا الهدف ، نصب عينيه ، انفق المال على تهذيبه من قبل (جورجياس) اللذي من (ليونتيني)(٨٤) . وبعد ان امضى معه ردحا ، قرر انه اضحى الان قادرا على قيادة جيش ، وانه ان صاحب العظماء ، فما يحققه لهم من خير لن يقل عما حققوه له ، ولذلك انضم الى مجازفة كورش ، حاسبا انه سيكسب من ورائها اسما عظيما ، وقوة كبيرة ، ومالا وفيرا . بيد انه ، مع هذه المطامع ، اوضح كذلك بقدر واف ، انه لا ينوي الحصول على اي منها بوسائل دنيئة . بل على النقيض ، فكر بوجوب احرازها بالاعمال العظيمة المجيدة ، والا فلا قطعا . لقد كان قائدا صالحا لاناس فضلاء ، لكنه لم يكن قادرا على الزام جنوده باحساس الاحترام له والخشية منه . في الحقيقة لقد ابدى تهيبا تجاه جنوده يعدو ما ابدى مرؤوسوه نحوه ، واكثر من ذلك جلاء كانت خشيته الا يكون محبوبا من جنوده ، تفوق خشية جنوده من عصيان اوامره . فخيل اليه انه كي يغدو قائدا صحيحا ، ولاجل ان يكون اسمه في عدادهم ، اكتفى بكيل الثناء للذين احسنوا عملا ، وبحجبه عن المسيئين . فكان الحاصل ان الناس في حاشيته احبوه ، ولكن الامتين،حطوا من شانه اذ ظنوا سهولة التعامل معه . كان عمره عند الوفاة حوالي ثلاثين عاما .

اما (مينون) الثسالي ، فقد اوضح تماما ان مطمحه الغالب هو الاثراء . وقد ود ان يكون قائدا كي يكسب مرتبا اوفر ، وأراد الامجاد ليحصل على المزيد عن سبيلها . ان امنيته في مصادقة اكثر الناس نفوذا ، نبعت من رغبته في تجنب العقاب لسوء تصرفاته . وخال ان اقصر سبيل ، لارضاء مطامحه ، وسائل الحنث والكذب والغش ، وعليه فقد عد الاخلاص والصدق في مستوى سذج العقول . وكان جليا انه لم يضمر الود لاي فرد ، لكنه ان افصح عن صداقته لاحد ما ، كاد ذلك ان يكون دليلا واضحا على تآمره عليه . لم يضحك على اهانه مطلقا ، لكنه ابان التحادث لم يعامل احدا من جماعته جادا . لم تكن لديه اية مقاصد تجاه ممتلكات خصومه ، لانه عد الحصول على اطلاع الناس اليقظين امرا صعبا ، اما مقتنيات اصدقائه ، التي لا رقابة عليها ، فحسب انه كان ابرز العارفين باليسير الذي يستطيع معه ان يسطو عليها . وعند عثوره على رجل ينقض الوعود ، ويرتكب الخطا ، عده شخصا حسن المؤهلات ، فكان

---

(٧٩) كان الاغريق يطلقون هذه التسمية على شبه جزيرة (غاليپوليس) قرب مضيق الدردنيل وشبه جزيرة القرم في البحر الاسود .

(٨٠) Perinthus

(٨١) مدخل مضيق الدردنيل حاليا .

(٨٢) يقصد الفصل الاول من القسم الاول .

(٨٣) اقليم في جنوب (بلغاريا) اليوم وجائز ان كان بعضها في (تراقيا) الحالية .

(٨٤) Leontini مدينة قديمة في جزيرة (صقليا) جنوبي ايطاليا .

بخشاه . لكنه حاول التعامل مع امريء متحسب ويحترم الحقيقة كما لو كان ناقص النهى . ومثلما كان بعض الخلق يفخرون بخشية الله وبصدقهم واستقامتهم ، هكذا كان (مينون) يفخر بقدرته على الغش والاختلاق والبهتان والهزء بخلانه . كان دائما ينظر الى الشخص المرتاب على انه نصف مهلب فحسب . وعندما شاء ان يتبوأ مكانة رفيعة في مصادقة احدهم ، حسب ان السبيل الى تحقيق هذا الغرض كان بتنحية الذين سبقوه في احتلال المقام الذي رنا اليه . ان وسيلته لضمان طاعة جنوده له كانت اسهامه في جرائمهم . واعتبر انه بعرض قواه العظيمة ورغبته في اساءة استعمالها ، استحق التمجيد والاكرام . وعند تخلي اي فرد عن العمل معه ، اعتاد القول ان استخدامه وعدم الاستغناء عنه كانا لطفا منه . اما بخصوص المجالات الاكثر غموضا من حياته ، فقد يدلي المرء بما كان عاريا من الصحة . لكن الحقائق الآتية معلومات عامة . فلما كان لا يزال حائزا رونق الصبا ، التحق (اريستيوس) ان يسند اليه قيادة مرتزقته. اذ ذاك عاش على اتم الوفاق مع آريوس رغم كونه فارسيا ، لان آريوس كان مولعا بالشبان ذوي الوسامة ، وهو ذاته ، قبل ان ينبت عذاره ، احتفظ ب (تاريباس) المراهق كرفيق ذكر . لقد اعدم رفاقه القادة لزحفهم مع كورش ضد العاهل ، لكنه ، رغم انه فعل كما فعلوا ، لم يمت ميتتهم . فبعد ان اعدم القادة الآخرون ، عوقب هو من قبل العاهل ، ولم يهلك كما قضى كليرخوس والقادة الآخرون بضرب رقابهم (اسرع ميتة بدت آنذاك) ، بل قيل انه لقي حتفه غب ان عاش حولا تحت وطاة اسوأ المعاملة كمجرم عادي .

لقد اعدم كذلك (اجياس) الاركادي وسقراط الآشي . لم يكن في وسع احد ان يستهين بشجاعتهما في الوغى ، او ان يتهمهما بقلة الاعتبار لاصدقائهما . وكان عمر كل منهما يناهز خمسة وثلاثين عاما .

اثر اعتقال القادة ، والقضاء على ضباط المئة والجنود الذين رافقوهم ، امسى اليونانيون في وضع مرتبك للغاية . فقد عرض لهم ان كانوا بالقرب من عاصمة العاهل ، تحيطهم من كل الجوانب شعوب ومدن عديدة من خصومهم ، وكان غير متوقع ان احدا سيزودهم بفرصة لابتياع الاطعمة في المستقبل . كانوا يبعدون عن اليونان زهاء الف ميل على الاقل ، ولم يتوفر لديهم الزاد ليدلهم الى الطريق . لقد حجزوا بين انهار لا يمكن اجتيازها ، فعرقلت اوبتهم الى الوطن ، حتى الفرس الذين زحفوا على العاصمة برفقة كورش ، انقلبوا عليهم ، فباتوا منفردين دونما فارس فرد في عسكرهم ، فبدا جليا انهم لو احرزوا نصرا ، لتعذر عليهم قتل اي من اعدائهم ، وانهم لو دحروا ، لما نجا واحد منهم بجلده . فلما تبدى لهم كل ذلك ، اضحوا في حال من القنوط العميق . قليلون تذوقوا الطعام ذلك المساء ، وقلة اضرمت النار . ولم يستعرض العديد منهم قرب السلاح تلك الليلة ، لكنهم استراحوا حيث اتفق ان كان كل فرد منهم ، ولم يستسلموا للكرى بسبب بؤسهم وتشوقهم الى اوطانهم ووالديهم وازواجهم واطفالهم . فظنوا انهم لن يحظوا بمشاهدتهم ثانية . في مثل هذه الحال من الفكر ، اخلدوا جميعا الى الراحة .

كان ثمة آثيني في الجيش يدعى زينوفون ، رافق الحملة لا كقائد ولا ضابط مئة ولا جندي عادي . ان (بروكسينوس) ، صديقه القديم ، ارسل في طلبه من موطنه ، ووعد ان يجعله صديق كورش الذي كان بروكسينوس يثمنه اكثر من وطنه بالذات . عندما اطلع زينوفون على خطاب بروكسينوس ، استشار سقراط الآثيني(٨٥) حول التجريدة المطروحة . واذ كان سقراط في ريبة من ان مصادقة كورش قد ينجم عنها السخط على آثينا ـ لان المعتقد ان كورش كان ذا نشاط جم في معاضدته الاسپرطيين في حربهم مع آثينا ـ اوصى زينوفون بالمضي الى (دلفي)(٨٦) لاستشارة الرب في شان الحملة . فذهب زينوفون الى هناك ، وسأل (ابولو) السؤال التالي : « لاي رب ساصلي وأضحي ، كي استطيع الانطلاق في الرحلة التي في خلدي ، على أحسن وجه وأفضل التكريم ، فاعود الى الوطن سالما ، ظافرا ؟ » كان رد (ابولو) ان عليه وجوب التضحية للآلهة المناسبة ، وعند اوبة زينوفون الى آثينا ، انبأ سقراط بجواب الكاهن(٨٧) . عندما وعى سقراط ذلك ، لامه لعدم استفهامه اولا ان كان الافضل له السير مع الحملة ام المكوث في الوطن ، بدلا من تصميمه الذاتي على وجوب الذهاب ، ثم استفساره عن احسن وسيلة للقيام بالرحلة . فقال : « على كل حال ، مازلت قد صفت سؤالك على تلك الشاكلة ، تحتم عليك ان تفعل ما امرك الرب » .

اذ ذاك ، ضحى زينوفون الضحايا كما اوعز اليه الرب ، وابحر فالفى پروكسينوس وكورش في سرديس(٨٨) على وشك الشروع في المسيرة الداخلية(٨٩) ، فقدم الى كورش . لقد كان پروكسينوس مشتاقا الى بقائه معهما ، وكذلك كان كورش اذ قال انه سيعيده الى الوطن حالما تنتهي التجريدة . كان المفروض ان تكون التجريدة ضد البيزيديين . وهكذا انضم زينوفون الى الجيش عن فهم خاطيء ، ولو ان هذا لم يكن خطأ پروكسينوس ، اذ لا هو ، ولا اي فرد عداه من اليونانيين ـ باستثناء كليرخوس ـ ادرك ان التجريدة كانت ساترة على العاهل . بيد انه ، لما وصلوا (كيليكيا) ، اتضح للجميع انهم كانوا زاحفين على العاهل . ومع ذلك ، فبالرغم من عدم تحمسهم للرحلة ، ومن مخاوفهم بصددها ، استمر الطيهم على المسير كي لا يفقدوا الاعتبار لدى بعضهم البعض وفي نظر كورش . ولم يختلف زينوفون عن الباقين ، فامسى الان ، مع موقفهم الصعب ، تماما كاي فرد منهم ، ولم يغلبه النعاس . غير انه نال ، في الاخير ، قسطا يسيرا من النوم ، لاحت له رؤيا خلاله . لقد حلم ان ثمة زوبعة مرعدة ، وان صاعقة هبطت على بيت والده ، فالتهب البيت باكمله ، واستيقظ حالا ، يسوده الذعر الشديد، وعد الرؤيا جيدة من بعض النواحي ، لانه ـ وسط مشاقه واخطاره ـ لمح ضوءا شديد السطوع من (زيوس)(٩٠) ، لكنها

---

(٨٥) المقصود هنا هو الفيلسوف اليوناني الاشهر الذي يبدو انه كان معلم زينوفون .

(٨٦) Delphi ـ مدينة في اليونان القديمة مشهورة بمعبد (ابولو) احد الارباب والاه الجمال والرجولة والشعر والموسيقى عند الاغريق .

(٨٧) Oracle ـ هو الوسيط او العلام او العراف او الوحي او المتنبيء الذي يبلغ مقدم القربان رسالة الرب .

(٨٨) مدينة على الساحل الغربي من آسيا الصغرى وهي منطلق الحملة .

(٨٩) المقصود بالمسيرة الداخلية هو سير الحملة داخل آسيا الصغرى واصقاع الامبراطورية الفارسية بالذات وليس على دولة اجنبية .

(٩٠) Zeus ـ هو رب الارباب عند الاغريق ويقابل (بيل) او (بعل) عند البابليين الملقب في تراتيلهم بالملك الجليل وبرب العباد .

ـ من نواح اخرى ـ كانت نذيرا له ، لانها بدت له صادرة من زيوس بصفته كالعامل ، وان النار بدت ملتهبة حول سائر اطرافه ، وهذا قد يعني انه لن يكون في مقدوره مغادرة بلاد العامل ، بل ستنغلق عليه جميع المسالك،لصعوبة ما او عداها. ان حقيقة تفسير رؤيا كهذه ، ستظهر مما حدث بعد الرؤيا .

هذا ما قد حدث . حالما استيقظ ، كان اول ما تبادر الى ذهنه هو هذا « علام رقادي هاهنا ؟ ان الليل يتصرم ، وقد يلوح العدو هنا فجرا . ان وقعنا في قبضة العامل ، فليس ما يحول دون مشاهدتنا وقوع اقطع الامور ، ومقاساتنا كل صنوف العذابات ، واهلاكنا ملطخين بالشنار . ومع ذلك ، ونحن في غاية البعد عن اي شخص مهتم باتخاذ اية خطوات لحمايتنا ، نرقد هاهنا وكاننا نملك فرصة الاستمتاع بوقت هادىء . وعليه ، ما هي المدينة التي انتظر منها انجاب القائد ليقدم على الخطوات الصائبة ؟ هل سانتظر حتى اغدو اكبر سنا قليلا ؟ سوف لا انمو مطلقا ، لو سلمت العدو ذاتي هذا اليوم » .

فنهض واقفا ، وقبل كل شيء استدعى للاجتماع ضباط المئة التابعين ليروكسينوس ، وقال لهم : «اني شخصيا ، ايها الضباط ، آمل عدم استطاعتي النوم اكثر منكم ، ولست بقادر ، بعد الآن ، على الاضطجاع دون هراك عند تفكري في الوضع الذي نحن فيه ، اذ لا ريب ان العدو حاربنا بصورة سافرة فقط عندما حسب ان خططه غدت ناجزة . اما من جانبنا نحن ، فليس ثمة الآن اي فرد يفكر في احتياطات مضادة ، بها نستطيع القتال على احسن ما يمكن . على اننا ان تراخينا ووقعنا في قبضة العامل ، فما نوعية المعاملة التي نتوقع منه ؟ انه الرجل الذي حز يد وراس شقيقه ، ابن امه بالذات ، ورفعهما على وتد حتى بعد مفارقته الحياة . لذا اي طراز من المعاملة ننتظر ، نحن الذين لا تشفع لنا رابطة من دم ، وقد زحفنا عليه بغية عزله وجعله مواطنا وقتله ان تمكنا ؟ اما سيمضي الى جميع المجالات المتيسرة ليوقع بنا كل داهية دهياء قابلة للتصور ، وبذا يرهب الزحف ضده ثانية كل البرايا ؟ كلا . من الواضح مؤكدا ، ان يتحتم علينا فعل كل شيء في طاقتنا لتجنب الوقوع في قبضته .

« والآن ، انا شخصيا ، عندما كانت الهدنة سارية ، لم استطع التخلي عن شعوري بالغم من اجلنا ، والنظر بحسد نحو العامل ومن بجانبه . تاملت كم واسعة وزاهية البلاد التي يمتلكون ، والاقوات التي لا تنفد ، وكم من الخدم يملكون والمواشي والمسجد والاكسية ، ومن ناحية اخرى ، تمعنت بعد ذلك في مستقبل رجالنا ، واننا نستطيع الحصول على جزء فقط من جميع هذه الاشياء الطيبة عن سبيل الانفاق ، وادركت انه لم يتبق الكثير ممن يحوزون المال فيستطيعون ذلك ، وان القسم الذي ادينا ، قد اعاقنا عن استحصال الاطعمة الا عن طريق دفع اثمانها . عندما فطنت لكل ذلك ، كنت احيانا اشعر بهواجس حول الهدنة اكثر مما افعل الان بشان الحرب . الا انهم ، حاليا ، قد وضعوا حدا للمهادنة ، واحسب ان فترة خطرستهم ومشاعرنا القلقة قد ادبرت كذلك . اذ ان هذه الاشياء الطيبة باتت الان مطروحة فباتتنا كغنائم للطرف الذي يثبت انه افضل رجالا ، والآلهة هم المحكمون في النزاع،وهم بطبيعة الحال والفون بجانبنا ، مادام خصومنا هم الذين تلفظوا اسماءهم عبثا ، بينما نحن ، مع وفرة الاشياء العديدة الطيبة امام ابصارنا ، اقصينا ايادينا عنها بثبات بسبب القسم الذي ادينا امام الآلهة . لهذا يبدو لي اننا نستطيع دخول المنازعة بثقة غالبة على ثقتهم . ثم اننا بغنيا نفضلهم قدرة على احتمال القر والحر والمشقة ، وقوتنا المعنوية ، والآلهة في جانبنا ، افضل من قوتهم ، واذا منحتنا الآلهة نصرا ، كما فعلت سابقا ، فقتلنا وجرحنا الاعداء ايسر علينا منهم .

« من المحتمل جدا ، هناك آخرون يشعرون نفس الشعور. حسنا اذن ، بحق السماء ، دعونا الا ننتظر انفسنا آخرين يقصدوننا مطالبين ان نقوم بالاعمال العظيمة . بدلا من ذلك ، فلنكن اول من يدعو الباقين نحو سبيل العزة . ايتوا انتم اشجع الضباط كافة ، وانكم احق بالقيادة من اولئك الذين هم قادتنا حاليا . وفيما يخصني ، ان شئتم المبادرة على هذا النحو ، فانا مستعد لاتبعكم ، وان عينتموني قائدكم ، فلست منتحلا الاعذار بصدد سني . فالحقيقة احسب اني من العمر بدرجة استطيع العمل للمدافعة عن نفسي بالذات » .

هذا ما تفوه به زينوفون ، وبعد الاصغاء اليه ، حرضه ضباط المئة جميعا ان يكون قائدهم ، خلا واحدا هناك يدعى (ابولونيدس) الذي كانت لهجته بيوطية . ان ابولونيدس هذا اعرب انه لهراء ان يقال بوجود اية فرصة للنجاة الا اذا امكن التوصل الى الوئام مع العامل ، وطفق في ذات الوقت يتكلم بشان جميع مصاعبهم . غير ان زينوفون قاطعه ، قائلا : « عزيزي ايها الرجل الطيب : انك لشخص من الصنف الذي لا يدرك ما يرى ، ولا يتذكر ما يسمع . مع ذلك ، لقد كنت مع الباقين عندما اوفد العامل رسله ، مطالبا بوجوب تسليم اسلحتنا غب وفاة كورش وهو مزهو بذلك ، ثم ـ ونحن ابعد ما نكون عن التخلي عنها ـ حينما ناهبنا القتال ، وعسكرنا بجوار جيشه ، لم يدع وسيلة لم يلجا اليها ـ موفدا جماعة للتفاوض ، راجيا التهادن ، مزودا اياها بالاقوات ـ حتى حصل على هدنته . لكن عندما ذهب قادتنا ورؤساؤنا للاجتماع ، كما تقترح انت بالضبط مخلفين اسلحتهم ، معتمدين على الهدنة ، فما الذي وقع ؟ اماهم في هذه اللحظة ، يضربون ويعذبون ويهانون ، حتى انهم اليؤساء المساكين ، لا يستطيعون الموت ـ ولو ان الموت ـ كما اتصور ـ هو ما يصبون اليه ؟ رغم كل هذه المعلومات لديك ، هل تصر ان الذين يوصون بالدفاع عن النفس ، ينطقون هراء ، فتقترح علينا الذهاب لنحاول ثانية التوصل الى مصالحة العامل ؟ ايها الجنود ، ارى انه يتحتم علينا الا نكابد وجود هذا في معيتنا ، فينبغي ان نجرده من رتبته ، ونضع على ظهره الامتعة ، ونستخدمه كدابة . فلكونه يونانيا ، وهو ما هو ، يجتلب العار لا على موطنه بالذات فحسب ، بل على اليونان باسرها » .

عند ذلك ، برز (آجاسياس الستيمفالي) وقال : « ليست لهذا الشخص علاقة ببيوطيا او باليونان . لقد لاحظت وجود ثقوب في اذنيه كشخص ليدي(٩١) تماما » . وكان كذلك حقا ، فاقصوه خارجا .

لقد ذهب الباقون حول المفارز المختلفة ، فاستدعوا كل قائد تخلف حيا ، وحيث وجد مفقودا ، نادوا نائبه ، وحيث وجد رئيس ، مازال على قيد الحياة ، استدعوه . فلما التاموا جميعا ، جلسوا امام الاسلحة . ان القادة وضباط المئة (الرؤساء) الذين اجتمعوا ثم ، عدوا قرابة مئة . وكان وقت الاجتماع حوالي منتصف الليل . لقد استهل الحديث (هيرونيموس) من (اليس)(٩٢) ـ اكبر قادة بروكسينوس سنا ،

---

(٩١) نسبة الى (ليديا) وهي مقاطعة في القسم الغربي البحري من آسيا الصغرى (تركيا اليوم) .

(٩٢) صقع في اليونان قديما يقع فيه العيهب الذي كانت تقام فيه الالعاب الاولمبية

فقال : « ايها القادة وضباط المئة : نظرا لوضعنا الراهن ، قررنا الاجتماع سوية ، ودعوتكم للمشاركة معنا كي نتوصل ، لو امكن الى قرار مجد . والان ادعو زينوفون للكلام كما سبق ان كلمنا » .

وعليه ، تحدث زينوفون كما يلي : « ها هنا شيء واحد نعلمه جميعا ، وهو ان العامل تيسافرنوس قد اسرا من عندنا جميع الذين تمكنا منهم ، وجلي انهما مصممان ، لو تمكنا ، على ابادة البقية منا . ان دورنا ، كما اراه ، عمل كل شيء ممكن للحيلولة دون وقوعنا في قبضة الفرس ، بل احرى بنا ان نضمن كونهم في قبضتنا . اود ان اؤكد لكم هذه النقطة بانكم ـ انتم الذين اجتمعتم هنا بعددكم الحالي ـ قد اصبحتم في مركز ذي مسؤولية فوق العادة . ان جنودنا هؤلاء ، كافة ، شاخصو الابصار نحوكم ، فان لاحظوكم مفتتين ، تخاذلوا جميعا ، بينما اذا كنتم انفسكم مستعدين تماما لمجابهة العدو ، وطالبتم الباقين بتأدية الواجب عليهم ، فلكم ان تتأكدوا انهم سيترسمونكم ويحاولون الاقتداء بكم . واحسب ، يصح كذلك ، انه ينبغي عليكم ان تظهروا عليهم شيئا من الرياسة ، فانتم ـ بعد كل الاعتبارات ـ قادة ورؤساء وضباط . في وقت السلم ، نلتم مرتبات واحتراما اكثر مما نالوا ، والان حين الحرب ، يفرض فيكم ان تثبتوا ذواتكم اشجع من الناس العاديين ، وان تتخطوا القرارات نيابة عن الباقين ، واذا لزم ، ان تكونوا اول من يؤدي العمل الشاق . اعتقد انكم قبل كل شيء تستطيعون ان تسدوا خدمة عظيمة الى الجيش بتعيينكم قادة ورؤساء بالسرعة الممكنة ليحلوا محل الذين فقدناهم . فحيث ينعدم المسيطر ، يتعذر تماما عمل اي شيء نافع او بارز . انها حقيقة تشمل جميع مناحي الحياة تقريبا ، وهي حقيقة ناجزة من الوجهة العسكرية فالنظام هنا يحمل الفرد على الشعور بالطمانينة ، بينما انعدام النظام قد اهلك كثيرين من الخلق فيما سلف .

« ثم احسب انكم بعد ان تكونوا قد عينتم العدد اللازم من الضباط ، او دعوتم لاجتماع الجنود الباقين ، فزودتموهم بقسط من الاقدام ، لكان ذلك ما يتطلب الظرف بالضبط . في هذه اللحظة ، اتوقع انكم تدركون مثلي تماما ، كم كانوا مكتئبين وهم يحملون اسلحتهم اثناء الخفارة الليلية . فهم في مثل تلك الحال، لا ارى اية جدوى منهم ليلا ام نهارا . لكن نهوضا عظيما سينشأ في ارواحهم ، اذا استطاع احد ابدال منهج تفكيرهم . وبدلا ، بدلا من حملهم فكرة وحيدة في رؤوسهم ، وهي : « ماذا سيحدث لي ؟ » يتسنى لهم ان يفكروا : « اي اجراء ساتخذ ؟ »

« تطعون جيدا ، ليست الاعداد او القوى جالبة الانتصارات في الحرب . كلا ، عندما يتقدم جانب ما ضد العدو، وقد تزود بقوة معنوية اعظم ، بهبة من الالهة ، لا يستطيع الخصوم ، كقاعدة ، الصمود امامه . كما قد لاحظت ، ايها الرفاق ، هذه النقطة في الاحوال العسكرية : ان الناس الذين هدفهم الوحيد هو البقاء احياء ، يلاقون عادة ميتة تعيسة مزرية ، بينما الناس الذين يدركون ان المنية نصيب يشمل جميع البرايا ، يحاولون الموت بشرف ، فيغلب ـ نوعا ما ـ ان يعمروا طويلا ويعطوا بحياة اسعد لو عاشوا . هذه حقائق يجب ان تدركوها انتم كذلك (فوضعنا يتطلب هذا) وان تثبتوا انفسكم رجالا بواسل ، وان تطالبوا الاخرين ان يحذوا حذوكم »

وهكذا انهى خطابه . وتكلم خريسوفوس بعده قائلا : « حتى الان يازيلوفون ، الشيء الوحيد الذي عرفت عنك هو سماعي انك آثيني . والان اهنئك على خطابك واجراءاتك ، واتمنى ان يكون هاهنا اكثر ما يستطاع من امثالك . اذ ذاك تعم الروحية الصحيحة الجيش فاطبة . والان لا ندع الوقت ينصرم هدرا ايها الاصحاب . دعونا ننطلق ، وليختر ضباطا جددا من هم في حاجة اليهم . وعند اختياركم اياهم ، تقدموا نحو وسط المعسكر مستصحبين الذين انتخبتم . بعد ذلك سنحشد بقية الجنود هناك . الافضل ان ياتي (توليدس) المنادي برفقتنا » .

بهذه الكلمات ، نهض على قدميه ليظهر عدم وجوب التاخير، وان ما هو ضروري ينبغي انجازه حالا . بعدئذ ، انتخب الاثنين ضباطا : (تيماسيون) الدرديني ليحل محل كليرخوس ، (زانثيكلس) الآشي ليحل محل سقراط ، (كليتور) الاركادي ليأخذ مركز (آجياس) و (فيليسيوس) الاركادي ليحل محل (مينون) و (زينوفون) الآثيني ليأخذ مكان بروكسينوس .

عندما تم اختيار الضباط الجدد ، كان الفجر آنذاك قد اخذ في الانطلاق ، فجاءوا وسط المعسكر ، وقرروا اقامة الحراسة ، ودعوة الجنود للاجتماع . فلما تربع بقية العسكر، نهض (خريسوفوس) اولا ، وتكلم قائلا : « ايها الجنود ، ان وضعنا لعسير دون ريب . لقد خسرنا بعض القادة والرؤساء والجنود الاكفاء للغاية ، علاوة على ذلك ، حتى رجال (اريوس) الذين كانوا في جانبنا ، انقلبوا علينا غادرين . مع كل ذلك يتحتم علينا ان نستظهر على صعابنا كرجال شجعان ، والا نستسلم بل نحاول ، ان تمكنا ، كسب الشرف والسلامة بالظفر . وان كان ذلك في غير مقدورنا ، فعلى الاقل قد مت بالعز ، ولا نقع في قبضة خصومنا ، ما دمنا احياء . لاننا ان وقعنا ، فاتصورنا حتما سنكابد ذلك المصير الذي اتضرع ان تلحقه الآلهة بمناوئينا » .

ونهض بعده (كليتور) الاورخوميني فقال : « تستطيعون ان تروا بام اعينكم ، ايها الجنود ، ما عليه العامل من الحنث والالحاد . تستطيعون مشاهدة غدر (تيسافرنوس) . هو الذي قال انه جار اليونان وانه سيعلق اهمية عظمى على انقاذ حياتنا . وعلى هذا الاساس ، حلف لنا اليمين بشخصه ، وبذاته مد نحونا يمينه ، وبنفسه خدع قادتنا وجعلهم اسرى ، مبديا من قلة الاجلال لزيوس ، القيم على الاكرام ، بأن شارك كليرخوس وجبة طعام بالفعل ، مستخدما ذلك باللذات وسيلة للايقاع بضباطنا في الشرك ، والقضاء عليهم . ثم هناك (آريوس) الذي تأهبنا لتنصيبه ملكا ، وتبادلنا معه الضمانات ان واحدنا لن يخون الآخر ، وهو كذلك ، دون ان يبدي خشية من الآلهة ، او اجلالا لذكرى كورش الراحل الذي كان يعامله افضل المعاملة عندما كان حيا يرزق ، قد تخلى عنا الآن ، والتحق بالد خصوم كورش ، وهو يحاول معهم ايذاءنا ، نحن الذين كنا اصحاب كورش . حسنا ، اني اتضرع الى الآلهة ان تلحق بهؤلاء الرجال ما يستحقون . اما نحن الذين نرى كل هذا ، فينبغي علينا الا نخدع ثانية من قبلهم ، بل ان نحارب بكل ضراوة ممكنة ، ونتحمل مشيئة السماء » .

بعده ، استقل زينوفون ، وقد ارتدى الفخر بزة عسكرية توفرت ، حاسبا ان الآلهة اذا منحت النصر ، فالنصر يستحق افضل السلاح مظهرا ، او ان كان سيلاقي حتفه ، حتى له ارتداء اجود الثياب وهي عليه ساعة مصرعه ، وشرع في خطابه كمايلي : « لقد تكلم كليتور عن ثلثة الفرس وعدوانهم ، واني متاكد انكم تتفقون مع مقالته . لذا ان شئنا خطب ودهم ثانية من جديد ، وجب علينا ، في الحقيقة ، ان نكون في منتهى

الهوان عند اعتبارنا ما اصاب قادتنا الذين ، بسبب وثوقهم بصحة ايمانهم ، وضعوا نفوسهم بين ايدي خصومهم . اما اذا كان غرضنا اخذ السلاح بايدينا ، وارغامهم على تادية الثمن عما اقترفت ايديهم ، وان نحارب في المستقبل حربا ناجزة ضدهم ، فلدينا اذ ذاك ، بعون السماء ، جملة آمال جليلة في النجاة » .

وما ان تفوه بذلك ، حتى عطس احدهم ، وحينما سمع الجنود تلك العطسة ، خروا جميعا على ركابهم دفعة واحدة ، وسجدوا للرب الذي اطلق هذه الاشارة(٩٣) . وواصل زينوفون يقول : « اعتقد ، ايها الجنود ، مادام قد بان لنا فال حسن من (زيوس) المنقذ حالما كنا نتحدث عن السلامة ، وجب علينا ان نعطي عهدا بتقديم الشكران للرب من اجل نجاتنا في اول موضع نبلغ عنده تربة صديقة ، وعلينا نذر القرابين للآلهة الاخرى على احسن وجه نستطيع . فليرفع يده كل من يوافق على ذلك » فرفع الجميع ايديهم ، ثم نذروا وانشدوا نشيد الحرب .

بعد تادية فرائض النذر على هذا النمط ، شرع زينوفون في الكلام ثانية : « سبق ان قلت الآن اننا نملك آمالا باهرة في النجاة . اولها ، حافظنا على قسمنا تجاه الآلهة ، بينما اعداؤنا قد حنثوا قسمهم ، وعلاوة على ذلك ، زوروا ذواتهم في تجاوز الهدنة . لذا من المعقول ، والحال كذلك ، ان نفرض بان الآلهة ستناوىء ، خصومنا ، لكنها ستحارب في جانبنا ، وانها قادرة عاجلا على جعل الاقوياء ضعفاء ، وانقاذ الضعفاء بيسر متى شاءت ذلك ، حتى لو كانوا وسط الخطر . ثم سأذكركم بالمخاطر التي اعترضت آباءنا ، لتدركوا ان الجدير بكم ان تكونوا رجالا بواسل ، وان الشجعان ـ بعون الآلهة ـ يجدون النجاة حتى من شر المشاق . تذكروا كيف تقدم الفرس وحلفاؤهم بجيش لجب ، ظانين انهم سيمسحون آثينا من وجه البسيطة ، لكن الآثينيين امتلكوا الشجاعة لمجابهتهم بانفسهم فقهروهم . آنذاك نذروا ان يضحوا لارتميس عنزة عن كل فرد قتلوه من الاعداء ، بيد انهم لعدم تمكنهم من الحصول على العدد الوافي من العنز ، قرروا تضحية خمسمئة عنزة سنويا ، وما برحوا يضحونها حتى هذا اليوم . بعدئذ ، عندما جمع (زرسيس)(٩٤) جيشه ، الذي لا يحصى ، واغار على اليونان ، كانت جولة اخرى دحر فيها آباؤكم هؤلاء الخلق برا وبحرا . انكم تستطيعون العثور على ما يثبت كل هذا في الانصاب التي لدينا ، لكن اعظم شاهد على ذلك لهو حرية المدن التي ولدتم ونشئتم فيها . فانتم لا تعبدون انسانا كسيد ، بل الآلهة فقط . هؤلاء هم الرجال الذين انتم انجالهم ، واني حتما لن اقول انكم تشينون آباءكم . فمنذ ايام قليلة فحسب ، كنتم في حرب ضد ابناء اعدائنا القدامى ، ورغم كونهم اضعافكم في العدد مرات عديدة ، فانتم ـ بمعونة الآلهة ـ قد دحرتموهم . في تلك الجولة ، ابديتم شجاعتكم كي تحرزوا مملكة لكورش ، لكن القتال الآن لنجاتكم بالذات ، ولذلك فانا موقن انه يجدر بان اتوقع منكم مزيدا من البسالة الفائقة ، ومزيدا من العزم الفائق على الانتصار ، كما عليكم ان تشعروا بمزيد من الثقة تجاه العدو . في المرة السابقة ، لم تكونوا قد اختبرتموهم بعد ، ولمكنتم من مشاهدة اعدادهم الجسيمة ، لكنكم ـ مع كل ذلك ـ بروحية آبائكم ، ملكتم الشجاعة فنازلتموهم . غير انكم الان ، اذ تعلمون من التجربة ، مع كونهم اضعافكم عددا ، لا يتمنون مجابهتكم ، فما هي حجتكم لتخشوهم بعد الان ؟ لا تتوهموا اننا اسوأ مما كنا سابقا لان العساكر الفارسية التي كانت في صفوفنا قد بارحتنا الان . انهم لأجبن من الفرس الذين قهرنا ، وقد دلوا على ذلك بانهزامهم من جانبنا نحو الجانب الآخر . انه لافضل بكثير ان يشاهدك الناس ، الذين يرومون ان يكونوا اول الفارين ، واقفين ضمن صفوف العدو ، بدلا من كونهم في صفوفهم بالذات .

« ان يشعر احدكم بثبوط العزيمة نظرا لعدم حيازتنا الفرسان ، بينما العدو يملك اعدادا هائلة منها ، ينبغي ان تتذكروا ان عشرة آلاف فارس يعادلون عشرة آلاف رجل فقط . لم يلق احد مصرعه قط بعضة او رفسة من حصان . فالرجال هم الذين يفعلون كل ما يحدث اثناء المعركة . اذن نحن على اساس اثبت بكثير من الفرسان الذين في الهواء على ظهور الخيل ، وهم لا يخشوننا فحسب ، بل يخافون السقوط عن صهوات جيادهم، بينما نحن ، من جهة اخرى ، نستطيع باقدامنا الراسخة في الارض ، توجيه ضربات اقسى نحو مهاجمينا ، كما اننا اكثر قدرة على اصابة ما نستهدف . ثمة سبيل واحد فقط به تمتاز الخيالة علينا ، وهو ان الفرار اسهل لهم مما لنا . طبعا ، يسعكم ان تكونوا على آتم الثقة بشان القتال ، لكن قد تقلقكم الحقيقة آن (تيسافرنوس) لن يدلكم الطريق بعد الآن ، ولن يتيح لكل العامل فرص ابتياع الطعام . ان تكن الحال كذلك ، فتاملوا ان كان الافضل ان يرشدنا (تيسافرنوس) ، وهو الرجل الذي يعمل ضدنا علانية ، ام ان يكون لدينا اسرى ، نامرهم بارتياد الطريق لاجلنا ، وسيدركون ان يرتكبوا اية اخطاء تصيبنا ، فستصيبهم بالذات ، وتلحق حياتهم كذلك . اما مسالة المؤن ، فالافضل شراؤها من الاسواق التي تجهزها ، حيث علينا دفع الكثير لابتياع القليل (اذ حتى المال لم يعد في حوزتنا) ، ام ان الافضل دحرهم في المعركة ثم الاستحواذ على ارزاقهم لانفسنا ، كل آخذ القدر الذي يشاء ؟ .

« قد تدركون ان هذه الوسائل الاخرى هي الفضلى ، لكن لا يغرب عن بالكم ان الانهار عقبة كاداء ، واعتبروا ذواتكم مقودين باحكام نحو الكمين باجتيازها . فان كان الامر كذلك ، سالتكم ان تعتبروا فيما اذا لم يرتكب الفرس هنا فعلا في منتهى الحمق . لان الانهار كافة ، مهما تعذر اجتيازها ، على شوط من منابعها ، ميسور خوضها دون بلوغ الماء حد الركبتين غالبا ، لو ان الفرد يتتبعها مصعدا باتجاه المنابع . وحتى اذا عجزنا عن عبور الانهار ، ولم ياتنا احد ليرشدنا نحو الطريق ، فليس ما يدعو لتثبيط عزيمتنا . لن ندعو (الميسيين) افضل منا رجالا ، مع علمنا بامتلاكهم المدن الواسعة الغنية في اصقاع العامل وعكس مشيئة العامل . ونعلم ان ذلك ينطبق على (البيزيديين) كذلك ، وقد شاهدنا بام اعيننا كيف ان (الليكونيين) قد ضبطوا المواقع المحصنة في السهول ، يتمتعون بما تدر عليهم ، العائدة الى هؤلاء الفرس . والان فيما يعني فضيتنا ، علي ان اقول : ينبغي الا نوضح اننا عائدون الى الوطن بل ان نتصرف وكاننا قد نوينا على البقاء هاهنا ، اني على يقين ان العامل سيزود (الميسيين) بكل الادلاء الذين يحتاجون اليهم

---

(٩٣) مازال فريق من الناس يؤمنون ان العطاس دلالة على الفال الحسن .

(٩٤) هو العامل الفارسي (أحشيرش بن داريوس) استولى على مصر في السنة الثانية من ملكه وهاجم آثينا في السنة التاسعة ، لكن الاغريق دحروه عند سلاميس وهو حفيد كورش الكبير .

ويعطيهم جملة من الرهائن كي يستوثق تماما من افعالهم عن القطر ، وانه في الحقيقة سيمهد لهم الطرق حتى لو رامـوا الذهاب في عربات ذوات اربعة جياد . وانا واثق ان جيـوشه سيكون ثلاثة اضعاف ذلك ليفعل كل هذا لاجلنا ، اذا راى عزمنا على الاقامة هنا . كلا ، فانا اخشى بمجرد اننا تعودنا الحياة بترف ونغدو في رسلة من العيش ، متمتعين برفقة هؤلاء النساء العظيمات الفاتنات ، حليلات وبنات (الميديين) والفرس ، قد نمسي كاكلي (اللوتس)(٩٥) ، ونسلو مسلكنا نحو الوطن . لـذا اعتقد ان المناسب والمعقول جعل سعينا الاول بلوغ بني جنسنا في اليونان ، وان نكشف لليونانيين ان بؤسهم كان بمحض اختيارهم كي يتمكنوا من رؤية اناس يحيون في اظارهم حياة بائسة ، فيصحون اثرياء بقدومهم الى هنا . ايها الجنود ، لا احتـاج الى الاسهاب في هذا المجال . فجلي ان جميع هذه الطيبـات تصيب الظافرين .

« غير اني يجب ان اتطرق الى هذه القضايا ـ كيف يتسنى لنا ان نجعل سيرنا مجردا من الخطر بقدر الامكان ، وكيف نخرج منالقتال بافضل نتيجة اذا ارغمنا على القتال . ان اول اقتراح ابديه لكم هو ان تضرموا النار في جميع عربات النقل التي لدينا كي لا تقودنا حيواناتنا ، بل نستطيع السير حيث تملي علينـا مصلحة الجيش ذلك . ثم علينا ان نحرق خيامنا كذلك ، اذ انها تخلق بعض العراقيل في النقل ، وهي بلا جدوى للقتـال او الحصول على المؤن . ولنتخلص من كل المواد غير الماسة ضمن معداتنا الاخرى ، ونبقى فقط ما نملك لغاية القتال والماكـل والمشرب ، حتى يستطيع اكبر عدد ممكن منا حمل الاسـلحة واقل ما يطاق حمل الامتعة . عندما يندحر قوم ما ، كما تعلمون، تضحى مقتنياتهم في متناول ايدي الآخرين ، وان نفز ، فيجب ان ننظر الى اعدائنا وكانهم حاملو امتعتنا عنا .

« بقي علي ان اذكر ما اعتقد اهم نقطة من عداها . يمكنكم ان تروا ما الذي ظن اعداؤنا بصددها . لم يجسروا على اشـهار الحرب علينا الا لحب اسرهم فادتنا ، ومرد ذلك الى حسبانهم اننا مازلنا نملك قادة نوليهم طاعتنا ، كنا قادرين على الفـوز في القتال ، لكنهم ما ان قبضوا على قادتنا ، خالوا اننا سننهار بسبب انعدام السيطرة والنظام . لذا من الضروري ان يكون اهتمام قادتنا الحاليين اكثر بكثير من اهتمام قادتنا السابقين ، وينبغي على الذين في الصفوف ان يكونوا اكثر تنظيما ، واغلب بكثير من السابق استعدادا لاطاعة ضباطهم حاليا . في احوال العصيان ، يجب ان نصوت ان اياً منكم اتفق له ان يكون في ذات المكان ، وجب عليه الاسهام مع الضباط في تطبيق العقـاب . سيكون هذا امر اخفاق لاعدائنا ، اذ في اليوم الذي نصوت على هذا ، لن يعودوا ليروا (كليرخوس) فردا فحسب ، بل عشرة آلاف ، لا يحتمل واحدهم اي تصرف غير عسكري .

« لكن حان لي ان اختتم . يجوز ان العدو سيداهمنا في الحال . اذا تقبلتم الاقتراحات التي عرضتها ، فلتبلغ رسميا باسرع ما يمكن ، كي توضع موضع التنفيذ . ان كان هنالك من يعلم سبيلا لمعالجة الامور امثل مما بينت ، فلتكن لديه الشجاعة ليخبرنا عنها ، ولو انه جندي عادي لا غير . ان السلامة التي ننشد ، تهم كل فرد » .

(٩٥) اللوتس ورد من فئة الزنابق المائية ينمو في مصر واليونان والهند . وهو كذلك شجر يؤكل ثمره فيسبب لمتناوله السبات العميق والنسيان .

بعد ذلك ، تكلم (خريسوفوس) : « ان شئتنا تبني اي حل آخر ، علاوة على ما يقترح زينوفون ، فنستطيع ذلك في لحظة او لحظتين . افترض انه ، دون ابطاء ، ينبغي التصويت على ان ما اقترح زينوفون الان لهو افضل نهج يتبع . فليرفع الموافقون ايديهم » .

فرفع الجميع ايديهم ، واستقل زينوفون ثانية ، وقال : « ايها الجنود ، اصغوا لاقتراحاتي الاخرى . من الواضح ، علينا بالمسير حيث يتسنى لنا الحصول على الميرة ، واحسب ان هناك بعض القرى الراهية على مسافة لا تعدو الميلين من هنا . لكني لن استغرب اذا تمثل العدو بالكلاب الرعديدة التي تهـر خلف اي فرد يجتازها ، فتحاول عضه ، لكنها تفر من وجه اي شخص يلاحقها . لا استغرب كذلك لو تقفوا اثرنا ونحن ننطلق . آنذاك ، ربما يكون من الاسلم ان نسير والمشاة الثقيلة على شكل مربع مفرغ ، فتكون الامتعة وما عداها من المواد الكثيفة آمن في الداخل . فان قيل لنا الان ، من يحتل الموقع الامامي من المربع، وينظم الفصائل الطليعية ، ومن ينبغي ان يكون على الجانبين ، ومن يتحتم ان يكون مسؤولا عن المؤخرة ، فعلينا الا نصم كل هذا بينما يتوجه الاعداء نحونا ، بل نستطيع حالا استخدام اولئك الذين قد اختيروا خصيصا لهذا العمل . ان كان لاي منكم اقتراح افضل ، فلننتبناه . والا فاني اقترح ان (خريسوفوس) يجب ان يقود المربع ، فهو ذو ميزة اضافية لكونه اسبرطيا . وقائدان آخران ، يكبرانه سنا ، ينبغي ان يهتما بالجانبين ، واصغرانا ، اي (تيماسيون) وانا يلزم ان يكونا مسئولين عن المؤخرة . اقترح هذا كاجراء مؤقت . بعدئذ ، نكـون قـد اختبرنا هيئة المسير هذه ، فنستطيع البت في افضل الاجراءات على حسب اختلاف الظروف . ان كان لدى اي منكم اقتـراح امثل ، وددت ان يعرضه » .

آنذاك ، اذ لم يبد احد اية اعتراضات ، قال زينوفون : « فليرفع اولئك الذين يرتضون ذلك ايديهم » . فنفذ الاقتراح ، وواصل يقول : « والآن ، اذن ، علينا ان نغادر الاجتمـاع ، وتنفيذ مقرراتنا . كل من يبغ رؤية عشيرته ثانية ، يتحتم ان يتذكر بان يكون جنديا مقداما . هذا هو الحل الوحيد . كل من ينشد البقاء حيا ، يجب ان يهدف الى النصر . ان الفائزين هم الذين يقومون بالتقتيل ، والخاسرين هم القتلى . واولئك الناس الذين يرومون المال ، عليهم ان يحاولوا كسب المعارك . ان الرابحين لا يستطيعون الاحتفاظ بما لديهم فحسـب ، بل تناول ما يعود للخاسرين » .

مع اختتام هذا الخطاب ، نهضوا وانطلقوا لاضرام النـار في عربات نقلهم وخيامهم . ان شاء احد ايا من الممتلكات الفائضة اقتسموها بينهم ، واقلوا المتبقي في الضرام . عند اتمام ذلك ، تناولوا فطورهم ، وبينما كانوا منهمـكين في ذلك ، قـدم (ميثرابيداتس) برفقة الاثنين فارسا ، فطلب تقدمالقادة نحو مدى يستطيعون ضمنه السماع ، وقال : « اني ، اصحابي الافريق ، كنت كما تعلمون مخلصا لكورش ، وما ازال صديقكم . واني كذلك لاجد موقفي الراهن هنا مزعجا جدا . لذا ان الفيت انكم تفكرون في اي مخرج امين ، وددت الالتحاق بكم ، وجلب جميـع تابعي معي . لذلك خبروني ما ترتاون فعله ، وهوني صديقـا في جانبكم ، ويود الانضمام اليكم في مسيركم » .

بعد المداولة ، قرر القادة ان يردوا عليـه الرد الآتي ، وكان ناطقهم (خريسوفوس) الذي قال : « ما صممنا عليه ، هو هذا : اذا اتيحت لنا العودة الى الوطن ، فسنخترق القطر ،

ملحقين اقل تلف ممكن ، لكن ان يحاول اي فرد ايقافنا ، فسنناضل في شق سبيلنا باعنف ما نستطيع » .

عندئذ ، حاول (ميثرايداتس) البرهنة على استحالة بلوغ الامان ضد ارادة العامل ، وعند هذه النقطة ، ادرك انه قد اوفد لغرض خفي مقصود . والحقيقة ، لقد كان فعلا احد رجال (تيسافرنوس) بمعيته ليضمن الركون اليه .

غب حدوث ذلك ، اجمع القادة ان الافضل لهم ، مادامو في بلاد العدو ، وجوب ادارة الحرب دون اية مفاوضات مع العدو ، لان رسل الطرف الاخر جنحوا الى افساد ولاء الجند . فهم في الحقيقة اغروا احد ضباط المئة (نيكارخوس الاركادي) الذي فر تحت جنح الظلام مع ما يناهز عشرين رجلا .

وبعد تناولهم وجبة طعام ، عبروا نهر الزاب(٩٦) ، وساروا بنظام حربي ، مع حيوانات نقل الامتعة وتابعي المعسكر داخل مربع ، وما ابتعدوا الا قليلا ، حتى لاح للعيان (ميثريداتس) مجددا ، برفقة ما يقرب من مئتي فارس وحوالي اربعمئة من رماة السهام والمقاليع ، وكان هؤلاء مدججين باسلحة خفيفة ، ويعدون على اقدامهم بسرعة شديدة .

لقد يمم (ميثريداتس) شطر الافريق وكانه كان على وفاق معهم ، لكن ما ان تدانى الجمعان ، حتى شرع رجاله ، المشاة والفرسان ، فجاة في اطلاق نبالهم ، بينما قذف الاخرون مقاليعهم ، واحدثوا بعض الاصابات . لقد كابد جند مؤخرة الافريق كثيرا ، لكنهم لم يتمكنوا من مقابلتهم بالمثل لعدم قدرة النبالة (الكريتيين)(٩٧) على الرمي نحو اشواط تماثل مسافات الفرس ، كما انهم نظرا لكونهم من افراد المشاة الخفيفة ، اعتصموا بقلب المربع . اما رماة الرماح ، فان مداهم لم يكن من البعد ما يكفي لاصابة رماة المقاليع الفرس .

عندئذ ، جزم (زينوفون) ان عليهم اكتساح العدو الى الخلف ، وتم ذلك على ايدي المشاة الخفيفة والثقيلة معه في المؤخرة . بيد انهم ، اثناء تعقيبهم ، اخفقوا في مسك اي نفر من العدو ، وذلك لانعدام الفرسان لدى الافريق ، وكان مشاتهم لا يستطيعون خلال شوط قصير ، ان يدركوا مشاة العدو الذين لاذوا بالفرار ، وهم آنذاك بعيدون عنهم لمسافة ما . وكان من الطبيعي تعذر مواصلة التعقيب على مسافة قصية عن بقية الجيش . ان خيالة الفرس ، وهم يسددون نحو الخلف من فوق ظهور جيادهم ، تمكنوا من احداث الجروح حتى اثناء فرارهم ، وعندما ادركهم اليونانيون الى بعد ما ، كان عليهم ان يعودوا القهقرى الى ذات المسافة ، وهم يقاتلون على طول الطريق . فنجم عن ذلك انهم لم يقطعوا اكثر من ميلين ونصف الميل في ذلك النهار باكمله . لكنهم ادركوا الارياف عصرا .

هنا كذلك ، كان قنوط جم . ان (خريسوفوس) والقائدين الاكبر سنا ، ظلوا (زينوفون) لقيامه بالتعقيب بعيدا عن صلب الجيش الرئيسي ، ورغما عن الاخطار التي تجشم ، كان عاجزا عن الحاق اي ضرر بالعدو . لقد اصغى زينوفون الى انتقاداتهم، وسلم انهم كانوا محقين في مظهم اياه ، وكانت الحقائق في جانبهم لتدعم دعواهم ، فقال : « غير ان الواجب علي كان ازاحتهم الى الوراء ، اذ لاحظت اننا كنا نقاسي كثيرا من جراء وقوفنا حيث كنا ، واننا عاجزون عن اتيان اي شيء في الرد عليهم . لكن قولكم يصح حالما شرعنا في ارجاعهم القهقرى . لم نكن اكثر طاقة على الحاق الاذى بهم . ولقينا غاية المشقة في ارجاع انفسنا . علينا اذن ان نحمد الالهة لعدم توجههم نحونا بقوة اكبر ، بل باعداد ضئيلة ، وخرجنا بالنتيجة انهم دون ايذائنا كثيرا ، قد ارشدونا الى مواضع عجزنا . تستطيع نبالة العدو حاليا رشقنا لمسافة ابعد مما تستطيع نبالتنا (الكريتيون) ردا عليهم ، ورماة مقاليعهم يستطيعون العمل خارج نطاق مرمى رماة رماحنا . عندما نرجعهم القهقرى ، يتعذر علينا اقتفاؤهم لمسافة تبعد كثيرا عن صلب الجيش ، وفي شوط قصير ، لا يستطيع الراجل ، مهما بلغ من السرعة في الجري ، ادراك الراجل الاخر الذي يبعد عنه مجال رمية قوس . لذلك ، ان اردنا منعهم من حيازة الطاقة على ايذائنا في المسير ، وجب علينا الحصول على رماة المقاليع والفرسان باسرع ما يمكن . هناك ، كما بلغني ، بعض (الرودسيين)(٩٨) في عسكرنا ، ويقال ان اغلبهم يعلمون كيفية استعمال المقلاع . كما ان سلاحهم ، في الحقيقة ، ذا مدى يبلغ ضعف مدى المقلاع الفارسي . ان المقاليع الفارسية لا تقذف بعيدا ، لانها تستخدم للرمي احجارا بحجم قبضة اليد ، لكن الرودسيين يعرفون كيف يستعملون الكرات الرصاصية كذلك . لذا ان وجدنا من الذي يحوز مقلاعا ، ودلعنا عن اية كمية متوفرة ، واكثر مالا من ذلك لمن يتطوع بصنع المزيد من المقاليع ، ونفكر بان نمنح امتيازات اضافية كل من يتخير العمل في صفوفنا كرامي مقلاع ، اذ ذاك ربما سيتقدم عدد واف لننتفع بهم . كما لاحظت ان في حوزتنا خيولا في الجيش ، بعضها خاصتي وبعضها خاصة (كليخوس) التي خلفها . وثمة العديد غيرها قد استولينا عليها ، نستخدمها حاليا لحمل الامتعة . فان صنفناها بان تحل محل بعضها بهائم نقل المتاع ، واعددنا الخيول للفرسان فقد يسبب هؤلاء كذلك ارباكا للعدو اثناء فراره » .

لقد تم الاتفاق على هذا ، فبرز ما يقرب من مئتي رام من رماة المقاليع تلك الليلة . وفي اليوم التالي ، تم اعداد خمسين حصانا وفارسا صالحين للعمل ، وزودوا باغطية جلدية ودروع ، وجعل (ليسيوس) الاثيني ، نجل (بوليستراتوس) آمرا على الفرسان .

توقفوا ذلك اليوم ، وتقدموا في اليوم التالي ، وقد استيقظوا مبكرين قبل المعتاد ، اذ كان عليهم ان يجتازوا جدولا ، وكانوا في خشية من مداهمة العدو اثناء عبورهم . لقد اجتازوه قبل ان ظهر (ميثريداتس) للعيان ثانية ، وكان هذه المرة بصحبة الف فارس وحوالي اربعة آلاف من رماة السهام والمقاليع . لقد طالب بهذا العدد واستحصله من تيسافرنوس ، واعدا اياه ، ان هو حصل عليه ، ان يسلمه اليونانيين اسرى . ان استصفاره شان اليونانيين بني على اساس من الحقيقة انه في الغارة السابقة لم يصب باذى ، بالرغم من ضالة قواته ، وحسب انه قد اوقع في الافريق خسائر فادحة .

عندما بات اليونانيون على مسافة تبعد زهاء الميل عن موقع عبورهم الجدول ، تحرك (ميثريداتس) كذلك بكامل قوته . فاصدرت الاوامر الى الاعداد اللازمة من المشاة الخفيفة والثقيلة بارجاع العدو القهقرى ، واوعز الى الفرسان ان يجدوا في

---

(٩٦) Zapatas ـ أغلب الظن انه الزاب الاعلى الكبير .

(٩٧) نسبة الى جزيرة (كريت) اليونانية في البحر الابيض المتوسط .

(٩٨) نسبة الى جزيرة (رودس) الافريقية في البحر الابجي جنوبي آسيا الصغرى ، مساحتها (٥٦٥) ميلا مربعا ، وكانت قديما ثغرا حصينا .

التعليب بعزم ، اذ كانت هناك قوات كافية لتدعمهم . وعندما ادركهم (ميثريداتس) واخذت تصل احجار المقاليع والسهام ، نفخ في النفير ، وللحال كرت نحو الامام كتلة واحدة من الذين اوجز اليهم بذلك ، وشن الفرسان هجومهم . ان العدو لم ينتظرهم ، بل ركن الى الفرار عائدا نحو الجدول . فقتل العديد من مشاة الفرس اثناء هذه اللاحقة ، وقبض على ما يقرب من ثمانية عشر فارسا حيا وسط المجرى المائي . فبادر الاغريق تلقائيا الى تشويه جثثهم ، كي يخلق مرآها اكثر رعب ممكن بين العدو .

بعد مقاساة هذه الهزيمة ، تقهقر العدو ، وواصل الاغريق سيرهم بامان لما تبقى من النهار ، ووصلوا نهر دجلة . وكانت ثم مدينة واسعة مهجورة تدعى (لاريسا)(٩٩) ، قطنها الماديون في الايام الغابرة . كانت مسورة بسور سمكه (٢٥) قدما وارتفاعه (١٠٠) قدم ومحيطه ستة اميال ، مشيد من الطابوق فوق قاعدة صخرية تمتد نحو عمق (٢٠) قدما . عند استيلاء الفرس على امبراطورية الميديين ، حاصر العاهل الفارسي هذه المدينة ، لكنه عجز تماما عن احتلالها . غير ان غمامة حجبت الشمس واخفتها عن البصر ، حتى هجر السكان الموضع ، وهكذا تم احتلال المدينة . وكان بالقرب من المدينة هرم صخري ، عرضه (١٠٠) قدم وارتفاعه (٢٠٠) قدم ، ففر اليه العديد من سكان الارياف المجاورة ، واعتصموا به .

من هنا ، ساروا قاطعين (١٨) ميلا في يوم واحد ، فبلغوا قلعة لا تقهر بالقرب من مدينة تدعى (مسيلا)(١٠٠) ، التي كانت ردحا آهلة بالميديين . كان اساس هذا الحصن حجرا املس ، يحوي كثيرا من الاصداف . كان عرض الحجر (٥٠) قدما وارتفاعه (٥٠) قدما ، يقوم عليه سور مشيد من طابوق ، عرضه (٥٠) قدما وارتفاعه (١٠٠) قدم ، ومحيط الحصن (١٨) ميلا(١٠١) . ان (ميدي) ـ قرينة العاهل ـ يرجح انها قد لجأت الى هذا الحصن عندما خسر (الماديون) امبراطوريتهم وتسنمها الفرس ، وحينما قصد العاهل الفارسي المدينة ، لم يستطع احتلالها ، لا بمرور الزمن ، ولا بالغارة عليها . الا ان (زيوس)(١٠٢) افقدهم رشدهم بصاعقة ، فتم احتلال المدينة .

بعد ذلك ، ساروا يوما واحدا قاطعين (١٢) ميلا ، لاح خلاله (تيسافرنوس) للعيان ، برفقة تابعيه من الفرسان بالاضافة الى القوة التي تحت قيادة (اورونتاس) الرجل الذي اقترن بابنة العاهل ، والعساكر الفارسية التي كانت بامرة كورش اثناء مسيرته ، والقوات التي رافقها شقيق العاهل لتعضده ، وعلاوة على ذلك جميع العساكر التي زوده بها العاهل ، فبدا جيشه عرمرما . عند الدنو ، جلب بعضا من زمره نحو مؤخرة الاغريق ، واقتاد آخرين شطر الجانبين ، لكنه لم يجسر على شن هجوم مباشر ، او يبد اية رغبة في المجازفة . بدلا من ذلك ، امر رجاله باستعمال مقاليعهم والقواسم . ان (الرودسيين) الذين وضعوا على مسافات معينة في صفوف اليونانيين ، استعملوا عندئذ مقاليعهم ، وبعدد النبالة سهامهم ، فلم يخلق احدهم في اصابة رجل ما (في الحقيقة استبعد ان يخطيء الهدف فرد لو حاول ذلك) ، فابتعد (تيسافرنوس) عن المجال سريعا ، ومثله فعل سائر جيشه .

فواصل اليونانيون مسيرهم لما تبقى من النهار ، والفرس يتعقبونهم . ان الفرس ، بوسائلهم القديمة المتبعة في الاقتتال من بعيد ، لم يلحقوا اية اضرار اخرى ، مادام (الرودسيون) قادرين على قذف مقاليعهم نحو مسافات ابعد من المقاليع الفارسية ، بل ابعد كذلك من غالبية نبالتهم . ان الفرس يستخدمون اقواسا كبيرة . لذلك فقد جميع النبال التي التقطت نافعة للكريتيين الذين استعملوا نبال العدو باستمرار، ومارسوا الرمي على المدى البعيد بمسار مرتفع . ولقد عثر في الارياف على كمية من اوتار القوس ، وكذلك بعض الرصاص الذي امكن استعماله للمقاليع .

بعدئذ ، غب ان وصل اليونانيون بعض القرى ، وخيموا ذلك اليوم ، ارتد الفرس وقد كابدوا اسوأ النتائج من جراء المناوشات من بعيد . في اليوم التالي ، مكث اليونانيون في موضعهم ، وتزودوا بالطعام الذي كان وفيرا في الارياف . وفي اليوم الذي اعقبه ، استأنفوا سيرهم على الصهيب ، وتيسافرنوس في الرهم يصوب نحوهم من بعيد . اثناء هذه المسيرة ، استنتج اليونانيون ان هيئة المربع المتخذة كانت رديئة حينما كان الاعداء عند المؤخرة . اذ عند تلاصق جانبي المربع ، من جراء تضايق الطريق او مجازهم عبر ممر جبلي او عبورهم فوق جسر ، فان ما سيحدث حتما هو ان المشاة الثقيلة ستزاح من موضعها ، وتغدو بطيئة السير ، متداكين مع بعضهم ومرتبكين ، فتمسي النتيجة ، وهم في وضع مشوش ، عدم الاستفادة منهم . ثم عندما ينحرف الجانبان ثانية ، سيرغم على التفرق من سبق ان ازيحوا من مواضعهم وتضحى المسافة بين الجانبين خاوية ، وعند حدوث هذا ، تحور عزائم الرجال بينما العدو في اعقابهم . وهكذا كلما استوجب عليهم العبور على جسر او اي شيء عداه ، تاصل كل فرد في

---

(٩٩) Larissa ـ عند التمعن في بعض الخرائط التي تبين المواقع الاثرية القديمة في العراق ، وتقدير المسافة التي سلكها الجيش بعد عبوره (الزاب الاعلى) ، اميل الى الاعتقاد ان هذه المدينة هي في الاصل موضع (نمرود) حاليا العاصمة الاشورية (كالح) التي قطنها الفرس الماديون ، وارجح لذلك ان هذه التسمية فارسية بعد اندثار الاسم الاشوري .

(١٠٠) Mesila ـ اغلب الظن انها مدينة (الموصل) حاليا وهذه التسمية مشتقة من الاشورية (مشفالو) . اما موقع الحصن الذي يذكره المؤرخ ، فارجح انه موضع قريب من مدينة (نينوى) المندرسة او بالاحرى (تل توبة) الذي يقوم عليه جامع (النبي يونس) حاليا وقرية بجواره تماما المواجهة لاطلال نينوى (تل قوينجق) الحالية .

(١٠١) اغلب الظن ان هذا المحيط هو السور الذي حول نينوى و (تل توبه) فقد شاهدته بنفسي قبل عشرين سنة تقريبا ، ومررت فوقه ، مدركا آنذاك انه تل غير طبيعي بل سور مندرس . وكان قد انقضى على سقوط نينوى حينما اجتاز بها زينوفون زهاء مئتي سنة .

(١٠٢) Zeus ـ هو رب الارباب عند الاغريق وهو في المنزلة مثل (بيل) او (بعل) عند البابليين الذين يلقبونه بالملك .

سبيل ان يكون اول العابرين ، مما اتاح للعدو فرصة ثمينة لمهاجمتهم .

لقد لاحظ القادة هذا الوضع ، وشكلوا ستة فصائل ، كل فصيل يؤلف مئة رجل ، وعينوا قواد مئة للفصائل الستة ، وضباطا لكل خمسين رجلا ولكل خمسة وعشرين رجلا . فمتى تعاكم الجانبان بعضهما نحو الآخر اثناء المسير ، انتظرت هذه الفصائل الستة خلفهما كي لا يحدثا اي تشويش في نظام الجانبين ، ثم عادت ثانية الى الجانبين الايمن والايسر . وعندما انفرج جانبا المربع ، كانت الفصائل الستة ستملأ الوسط ، صائرة نحو الانفراج ، ان كان صغيرا فيزمر مع ستة افراد في الامام ، وان كان اوسع فمع اثني عشر رجلا في الامام ، وان كان واسعا جدا . فمع خمسة وعشرين رجلا في الامام ، كي يظل قلب المربع مليئا دائما . وعندما وجب عليهم عبور اي جسر او غيره ، حافظوا على نسقهم ، بان يقود ضباط المئة فصائلهم عبره بالتعاقب كما كانوا على اهبة العمل اذا تطلب الامر ذلك في اي شطر من صلب الجيش الرئيسي .

فتقدموا على هذه الهيئة لمدة اربعة ايام . وخلال سيرهم في اليوم الخامس ، شاهدوا طرازا من جوسق ، تناخمه بعض الضياع ، ورأوا ان الطريق الى هذا الموضع ممتدة عبر ارض مرتفعة ، تشكل سفوح التلال المحيطة بالوهاد الذي قامت القرية تحته . لقد سر اليونانيون بمرأى الروابي ، وكان ذلك طبيعيا لاعتبارهم قوة عدوهم من الفرسان ، لكنهم عندما ساروا قدما ، وبعد ان ارتقوا التل الاول ، وهبطوا نحو الوادي لارتقاء الثاني ، داهمهم الفرس . وبدافع من التحريض ، اطلقوا رماحهم ومقاليعهم وسهامهم من مرتفعهم على الارض المنخفضة ، فاحدثوا عددا من الكلوم . لقد ادركوا الطرف الاعلى من عساكر اليونانيين الخفيفة ، وارغموهم على البقاء محصورين ضمن مربع المشاة الثقيلة ، وبدا بات النبالة ورماة المقاليع دون افادة مطلقا ذلك اليوم ، لامتزاجهم بالزحام الشامل . وعندما عالج اليونانيون التخلص من صعابهم برد العدو الى الوراء ، وجدوا ـ لكونهم مشاة من الصنف الثقيل ـ صعوبة بلوغ قمة الاكمة ، حينما اندلق العدو مبتعدا عنهم بسرعة . وعندما عادوا ثانية الى بقية الجيش ، قاسوا كالسابق تماما ، وحدث ذات الشيء على الرابية الثانية . لذا قرروا عدم السماح للجنود بالتحرك من التل الثالث حتى يكونوا قد اقتادوا نحو الجبل قوة مشاة خفيفة من الجناح الايمن من المربع . ولما ارتقت هذه المشاة الخفيفة ارضا ارفع من ارض العدو الذي كان يتعقبها ، كف الاعداء عن مهاجمة الجنود عند انحدارهم ، لانهم خافوا تشتيت شملهم وصيرورة الاعداء على طرفيهم . فساروا بهذا الشكل خلال ما تبقى من النهار ، بعضهم بمحاذاة الطريق فوق التلول ، والاخرون يواكبونهم بحذاء الجبل ، حتى وصلوا الارياف . فمنوا بعدئذ ثمانية اطباء ، لوجود العديد من الجرحى .

لقد لبثوا هنا ثلاثة ايام لسببين : اولهما من اجل الجرحى ، وثانيهما لاستطاعتهم الحصول على قوت وفير ـ دقيق الحنطة ونبيذ وكثير من الشعير المخزون لاجل الخيول . كل ذلك كان مدخرا لوالي الناحية .

في اليوم الرابع ، هبطوا نحو الصيهب ، لكن عندما ادركهم (تيسافرنوس) مع قواته ، انطلقوا يدرسون الحقائق القاسية ، وهو ان يعسكروا في اول موضع وجدوا فيه قرية ، والا يواصلوا المسير والاقتتال في آن معا . ومرد ذلك الى وجود العديد من الرجال عاطلين عن العمل : الجرحى وحملتهم والذين استلموا اسلحة الحاملين . لكن عندما عسكروا ، واتجه الفرس صوب القرية في محاولة لمشاغلتهم في قتال عن بعد ، خرج اليونانيون بنتيجة الفضل كثيرا . فكان ثمة فارق عظيم بين شروع الواحد من ارضه بالذات في صد العدو وبين المقاتلة اثناء المسير حينما يكون العدو في اعقابه .

وعند حلول العصر ، ازف وقت تراجع العدو ، لان الفرس (خشية من قيام اليونانيين بشن هجوم ليلي) عسكروا دائما على مسافة تبعد ستة اميال على الاقل عن الجيش اليوناني . ان الجيش الفارسي عديم الجدوى في الليل ، مادامت خيوله تعقل ، كما تربط اقدامها عادة ، كي لا تنهزم لو تركت سائبة . لذا ان حدث اي اضطراب ، فينبغي ان تسرج الخيول لراكبيها الفرس وتلجم ، ثم على الراكب ان يرتدي درعه ويمتطي جواده وهذه كلها امور يصعب انجازها ليلا وسط الضجيج . هذا ما حملهم على ان يعسكروا عند مسافة نائية عن اليونانيين . فلما علم اليونانيون الان عزم الفرس على التراجع ، اذ كانوا في الحقيقة يبلغون الابعازات بذلك ، اصدروا امرا لعساكرهم ـ على مسمع من العدو ـ بتجميع امتعتهم . عندئذ احجم الفرس عن الانسحاب لفترة ما ، لكنهم بعد حين عادوا ، غير مجدين السير ثم الاوبة الى المعسكر اثناء الليل .

واذ لاحظ اليونانيون انهم عائدون دون ريب ، رفعوا خيامهم ، وانطلقوا سائرين لمسافة ستة اميال تقريبا . بهذا غدت الشقة بين الجيشين حدا لم يعد معه بالامكان رؤية اي اثر للعدو ، لا في اليوم التالي ولا الذي اعقبه . في اليوم الرابع ، تقدم الفرس ليلا ، واحتلوا موقعا مطلا على يمين الطريق التي نوى اليونانيون على طرفها . كان ذلك الموقع احدى ذرى الطود المشرف على الطريق الممتدة في السهل . عندما شاهد (خريسوفوس) انهم قد سبقوا الى احتلال ذلك المرتفع ، استدعى زينوفون من المؤخرة ، وطلب منه استقدام مشاته الخفيفة والمجيء نحو المقدمة . غير ان زينوفون لاحظ (تيسافرنوس) وقد بدت كامل قوته للعيان ، فلم يقتد المشاة الخفيفة الى الامام ، بل انطلق راكبا بمفرده نحو (خريسوفوس) وساله : « لماذا تناديني ؟ » فاجاب خريسوفوس : « تستطيع ان ترى ذلك بنفسك . ان الرابية ، المطلة على طريقنا في الاسفل ، قد سبقنا في ضبطها . لا يسعنا العبور الا اذا اكتسحناهم منها . لكنك لِمَ لمْ تجتلب المشاة الخفيفة ؟ » فرد زينوفون انه لم يفكر من الصواب ترك المؤخرة بلا قوة ، بينما العدو على مرأى ، وقال : « على كل حال ، لقد حان الوقت حتما ان نصمم كيف يتسنى للفرد ازاحة اولئك القوم من الاكمة » .

حينذاك ، لاحظ زينوفون ان مرعرة الجبل اعلى من الارض التي عليها الجيش اليوناني ، وان بالامكان السير منها نحو الجبل الذي صعده الاعداء ، فقال : « ان افضل ما نفعل ، يا خريسوفوس ، هو التقدم نحو القمة باسرع ما نستطيع . ان تمكنا من ضبطها ، فسيعجز عن الاحتفاظ بموقفهم اولئك الذين يشرفون على طريقنا . اذا شئت ، فامكث هنا مع الجيش الرئيسي . سأتطوع بالمضي قدما . ام ، اذا فضلت ، فسر نحو الجبل ، وسأبث هنا » فقال خريسوفوس : « سأترك لك الخيار ان تفعل ما تشاء » .

فاعرب زينوفون بما انه الاصغر سنا ، اختار التقدم نحو الجبل ، لكنه طلب من خريسوفوس ان يمده ببعض الرجال من المقدمة للمضي معه ، اذ ان جلب الرجال من المؤخرة كان سيستغرق وقتا . فلان له خريسوفوس باخذ المشاة الخفيفة التي كانت في المقدمة ، والتي كانت وسط المربع ، كما امر ثلاثمئة من الرجال المختارين ، الذين كانوا تحت امرته الشخصية في واجهة المربع ، بالذهاب مع زينوفون .

فانطلقوا في السير بأسرع ما تمكنوا ، لكن الاعداء فوق الاكمة ، اذ لاحظوا اليونانيين متوجهين صوب القمة ، هرعوا هم كذلك في العدو لينازعوهم الموقع . فكان ثمة استصراخ كثير : من الجيش الاغريقي يستحث رجاله من جانب ، ومن قوم (تيسافرنوس) يحرضون رجالهم من الجانب الاخر . لقد ركب زينوفون جوادا على طول الصفوف ، يستحثهم على الارتقاء قائلا : « ايها الجنود ، اعتبروا انكم الان تقاتلون من اجل اليونان ، وانكم تشقون الان طريقكم نحو اولادكم وحليلاتكم ، واننا بقليل من المشقة حاليا ، سنمضي في ما تبقى من طريقنا دون مقاومة » فقال (سوتريداتس) وهو رجل من (سيكون)(١٠٢) : « لسنا متعادلين يا زينوفون . انك ممتط صهوة جواد ، بينما انا قد انهكني مجن احمله » .

عندما وعى زينوفون ذلك ، قفز عن صهوة جواده ، واقصى (سوتريداتس) عن الصفوف ، وجرده من ترسه ، وتقدم راجلا بأسرع ما استطاع ، حاملا الترس . واتفق انه كان متدرعا بدرع الفرسان كذلك ، فصار انطلاقه بطيئا . لقد ظل مشجعا اولئك الذين في الطليعة على الاستمرار في المسير ، واولئك الذين خلفهم على اللحاق بهم ، مع انه باللذات كان يناضل خلفهم على طول . غير ان الجنود الاخرين ، ضربوا (سوتريداتس) ورجموه بالحجارة ولعنوه حتى ارغموه على استعادة ترسه ومتابعة السير . عندئذ عاد زينوفون فاعتلى جواده ، وقادهم نحو الطريق على ظهر الحصان ، طالما كانت الطريق صالحة . ولما غدا ركوبه مستحيلا ، غادر حصانه الى الخلف ، ودلف في سيره نحو الامام على قدميه . وهكذا بلغوا القنة قبل العدو .

وعلى ذلك ، ولى الفرس الادبار ، وهربوا في جميع الاتجاهات ، وضبط الاغريق القنة . فحاد جانبا جيش تيسافرنوس وآريوس ، ومضوا في مسلك آخر ، وانحدر رجال خريسوفوس الى الصيهب ، وعسكروا في قرية حافلة بطيبات كثيرة . في هذا السهل المحاذي دجلة ، كانت ارياف عديدة زاخرة بالمؤن كذلك .

غير ان العدو شوهد في الصيهب بعد العصر على حين غرة ، وشتت بعض الاغريق المنتشرين هناك ، والمنهمكين في الاغتنام ، اذ قد امسكت بعض قطعان الماشية عند جلبها لعبور النهر الى الضفة الاخرى . فحاول عندئذ تيسافرنوس ورجاله احراق القرى ، فاغتم بعض الاغريق لذلك ، اذ قد خيل اليهم انهم ان احرقوا القرى ، فلن يجدوا موضعا يحصلون فيه على الميرة .

(١٠٢) Sicyon ـ مدينة تقع الى الشمال الشرقي من مدينة (كورنثوس) باليونان .

كان (خريسوفوس) ورجاله قد عادوا حديثا من انقاذ الذين في الدلصة ، وعندما صادف فريق الانقاذ زينوفون عند انحداره من الاكمة ، مضى راكبا بحذاء صفوفهم ، وقال : « اما ترون ، ايها الاغريق ، انهم اذعنوا الان بأننا مالكو ارضهم ؟ عندما مهدوا للهدنة ، ركزوا على هذه النقطة كثيرا ، وهي لاينبغي احراق ارضي العامل ، وهاهم الان يحرقونها بانفسهم وكانها ليست ملكه . لكننا ان توفر اي طعام لانفسهم حيثما كان ، فسيجدوننا سائرين هناك ايضا . في الحقيقة ، يا خريسوفوس ، ارى انه يستوجب علينا اعتبار هذه الملكية خاصتنا ، ونمنعهم من احراقها » فقال خريسوفوس : « لا اخال ذلك ، بل نستطيع اعانتهم في مسعاهم ، وآنذاك سيكفون سريعا » .

عندما عادوا الى مضاربهم ، التام القادة وضباط المئة في اجتماع ، بينما انشغل الباقون بالتجهيزات . انهم الان في وضع جد عصيب . فمن احدى الجهتين ، كانت ثمة جبال ساحقة جدا ، وعند الجهة الاخرى ، كان النهر الذي بلغ من العمق ، عند اختباره ، حدا غدت الرماح التي نكست فيه دون مستوى الماء ، وبينما كان القادة غير متاكدين مما سيقدمون عليه ، برز شخص من (رودس) ، وقال : « اني اتعهد بالعبور بكم على دفعات ، اربعة آلاف من المشاة الثقيلة في كل دفعة ، اذا زودتموني بما اتطلب ، ووهبتموني وزنة(١٠٣) فضة اجرا » .

وعندما سالوه عما احتاج اليه ، اجاب : « ساحتاج الى الفي قربة من الجلد ، اذ ارى عددا من الاغنام والماعز والثيران والحمير حولنا . عند سلخنا جلودها ونفخنا فيها ، ستزودنا بوسيلة يسيرة للعبور . كما ساتطلب حبال الحيوانات التي تحمل الحقائب . بهذه الحبال ، ساوثق القرب ببعضها ، واضع كل قربة في موضعها بربطها بحجر يتدلى في الماء كمرساة . ثم سائر القربات عبر النهر ، واشدها الى الضفتين ، واضعا فوقها الخشب ، تعلوه طبقة من تراب . بلحظة واحدة ، سالبت لكم الا خطر من الغرق . كل قربة ستحمل شخصين ، والخشب والتراب بمثمان انزالقهما » . فاصغى القادة اليه ، لكنهم فكروا ، رغم كونها فكرة حسنة ، ان من المتعذر تنفيذها ، لوجود اعداد جسيمة من الفرسان عند الضفة الاخرى لتصد تقدمهم ، وانها للغور ستعيق الرجال الاوائل عبر النهر عن تادية مهامهم .

في اليوم التالي ، عادوا القهقرى ، سالكين طريقهم السابقة المؤدية الى الارياف التي لم تضرم فيها النار ، فاحرقوا القرى التي شرعوا منها في الحركة كي يعيقوا دنو العدو منهم ، لكنه لاحظهم من بعيد ، حائرا في الظاهر بشأن السبيل الذي سيسلكه اليونان بعد الان ، وماهية نياتهم . عندئذ عقد القادة اجتماعا آخر ، بينما انشغل الجيش الباقي بالتجهيزات . فاستحضروا الاسرى ، واستفسروهم مفصلا عن الاصقاع التي تحيطهم . فكانت الردود ان الاصقاع في الجنوب متجهة نحو

(١٠٣) الوزنة (Talent) تعادل (٢٥٠) او (٣٤٠) جنيها . كما انها تدل على وزنة ذهب تساوي عشرة آلاف جنيه تقريبا . والاولى اقرب الى المعقول .

(١٠٤) Susa ـ عاصمة فارسية قديمة .

(١٠٥) هي Ecbatana سابقا عاصمة ميديا .

بابل وميديا ، وهي في الحقيقة الطريق التي قد سلكوها . والطريق شرقا ، تتجه نحو شوشه(١٠٥) وهمدان(١٠٦) التي قيل انها مقر العاهل صيفا ، وان عبر الواحد النهر وانطلق غربا ، اتجهت به الطريق نحو (ليديا) و (ايونيا) ، والطريق المتجهة شمالا فوق الجبال ، تسلك نحو (الاكراد) . والصحيح ان هؤلاء القوم يقطنون الجبال ، وانهم بواسل جدا ، وغير خاضعين للعاهل . والحقيقة ان جيشا ملكيا ، قوامه مئة وعشرون الفا ، غزا مرة ديارهم ، فلم يعد منهم فرد واحد بسبب وعورة الارض التي وجب عليهم ان يوغلوا فيها . لكنما في احوال عقد المصالحة مع الوالي المسيطر على السهل ، كان ثمة تخالط متبادل بين الاكراد وبينهم . فاستوعب القادة هذه المعلومات ، وعزلوا جانبا الذين اعربوا عن المامهم بالطريق في كل اتجاه ، ولم يلمحوا باية اشارة نحو المسلك الذي سيتبعون ، غير انهم فكروا بوجوب غزو (كردستان) عبر الجبال ، اذ انهم ـ استنادا الى الاسرى ـ سيصلون ارمينيا حالما سيجتازون هؤلاء القوم ، وهي قطر واسع غني يحكمه (اورونتاس) ، ومن ثم ـ قال الاسرى ـ يسهل السير في اي اتجاه شاء الفرد .

فقدموا القرابين لتبريك هذا القصد ، كي يستطيعوا الشروع في المسير عندما يعتقدون ان الوقت الملائم لذلك قد حان. فقد كانوا في خشية من ان يسبقهم الفرس في احتلال الممر فوق الجبال . ثم اصدروا الاوامر ، انهم بعد العشاء ، ينبغي على كل فرد ان يحزم عتاده فيستريح ، ويجب ان يكونوا متاهبين لاقتفاء ضباطهم عند صدور الايعاز .